

عُظَمَاءُ مَدِينِيَّوْنَ

في التاريخ الحديث

(الأجزاء ١، ٢، ٣)



تأليف

محمد بن موسى الشريف

عظماء

مناسيون

في التاريخ الحديث

[الجزء الأول]

د. محمد بن موسى الشريف



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى للناسر

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

رقم الايداع

٢٠١١/١٥٩١٩

الترقيم الدولي I.S.B.N.

978-977-265-857-7

دار التوزيع والنشر



٢٥١ ش بور سعيد - السيدة زينب - القاهرة

ت. فاكس ٢٣٩١٧٩٥٦ ت. ٢٣٩١٧٩٥٠

d.eltwzea@gmail.com www.eldaawabookshop.com



• مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن العصر الحديث ملئ بالأحداث الضخمة، بدءاً من الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١١هـ/ ١٧٩٨م ثم الحملة الإنجليزية على مصر سنة ١٨٠٧م، ثم الحملة الفرنسية على الجزائر سنة ١٨٣٠م، ثم الحملة الفرنسية على تونس ١٨٨١م، والحملة الإنجليزية على مصر سنة ١٨٨٢م، ثم الحملة الإيطالية على ليبيا ١٩١١م، ثم احتلال المغرب سنة ١٩١٢م، ثم احتلال العراق وفلسطين ١٩١٨م، واحتلال سورية سنة ١٩٢٠م، وجملة كبيرة من الأحداث وقعت في أثناء تلك السنين.

ثم إنه بعد احتلال أعداء الإسلام لأكثر بلاد المسلمين سقطت الخلافة العثمانية، ونشأت الجماعات الإسلامية.

ثم تخلصت الدول الإسلامية من محتليها، فيما عُرف بالجللاء، وبقيت فلسطين إلى يوم الناس هذا تحت الاحتلال، وبقيت أجزاء من بعض الدول العربية محتلة في الأردن وسوريا ولبنان والمغرب (سبته، مليلة) إلى يوم الناس هذا أيضاً.

وفي تلك الحقبة الزمنية الطويلة التي تسمى العصر الحديث: القرن الثالث عشر، الرابع عشر الهجريين/ التاسع عشر، العشرين الميلاديين، في



تلك الحقبة برز رجال عظماء، كان لهم أثر ضخم في تلك الأحداث، وبذلوا وقدموا، وعملوا وأعطوا، وهوجموا وابتلوا وصبروا فلم تلتن لهم قناة، ولم يؤثر عنهم ضعف ولا ذل ولا هوان.

هؤلاء الرجال يُعدون بالآلاف، لكن أكثرهم ظلت أسماؤهم مجهولة عند أكثر المسلمين، وإن عُرفت الأسماء فقد جُهلَت الأعمال، وصار أولئك العظماء الذين كانوا مشاعل هدى في ديارهم وزمانهم معدودين في جملة المجاهيل، فلم تعد الأجيال تسمع بأسمائهم وأفعالهم، بينما كان المأمول أن يتخذوا قدوات يُقتدى بها، ويرجع إليها، لكن ما الحيلة وأكثر وسائل الإعلام والتثقيف عن أولئك بمعزل.

لذلك رأيت أن أتخير من أولئك العظماء الذين أسدل عليهم ستار الإهمال والنسيان عدداً ممن حفظ الزمان سيرهم في بطون الكتب، لأعرضها على الناس حتى يستفيدوا من العبر والعظات الواردة فيها، وليعرفوا تاريخهم من خلال قراءة تواريخ العظماء، فإن العظماء هم صناع التاريخ حقاً، ومن عداهم إنما هم مشاهدون أو مشاركون -على استحياء- بشيء يسير.

ولقد كنت تكلمت عن جملة من أولئك العظماء في حلقات بُثت من قناة «اقرأ»، وسألني عدد من الناس لا أحصيهم من بلاد كثيرة، أن أنقل هذه الحلقات إلى كتب، فكنت لما أسمع ذلك أعهد من نفسي إحجاماً عن هذا العمل، والسبب محصور في أمرين:



الأول: أنى كنت قد تكلمت -غالبًا- عن سير مشاهير تمتلئ الدنيا بذكرهم فما هى الحاجة لنقل الكلام إلى كتب؟ ثم إن هؤلاء قد آلفت فيهم كتب كثيرة فما الحاجة لإعادة التأليف؟

الآخر: أن نقل الكلام الملقى إلى الكتب لهو أمر سهل جداً يستطيعه كل أحد، لكن سيكون الكتاب ركيكاً فى أسلوبه ضعيفاً مفككاً، وذلك أن المتكلم ربما أعاد بعض الجمل أو الكلمات، أو بتر الكلام لعله ثم لم يعد إلى السياق الذى كان فيه، أو وهم فى موضع من حديثه، أو أتى بالأحداث مختلطة غير مرتبة، أو غير ذلك من العلل، فإذا نقل الكلام إلى كتاب وهو على تلك الحالة صار المكتوب ركيكاً هزيلًا.

وربما قيل: لم لا يراجع الكلام قبل نقله إلى كتاب وتعالج عله؟

وأقول: قد جربت هذا فى حلقات ست هى: عمر المختار، والحسن البصرى، وعبد الحميد بن باديس، ومحمد بن عبد الكريم الخطابى، وعبد العزيز بن باز، وصلاح الدين الأيوبي، ونقل الكلام إلى كتب وأتيت عليها كلها مراجعة وتصحيحاً وضبطاً وتخلصاً من علل الكلام الملقى ارتجالاً وآفاته، وبعد لأى أذنت بطبعها لكن لم يرضنى أسلوب الكتابة، بل رأيت أنه يخالف ما عرفته من طريقتى وأسلوبى مخالفة بينة، فعزفت عن نقل باقى الحلقات، ولم أرض ذلك الصنيع على أن بعض تلك الرسائل قد كتب له شىء من الانتشار وأعيد طبعه، لكنى لا أحب لنفسى أن تكون كتابتى على هذا الوجه، فتوقفت عن هذا الصنيع.



ثم إنى عمدت إلى أمر وسط، ألا وهو أن أكتب عن من أريد الحديث عنه كتابة مستأنفة ليست منقولة من الكلام المسجل في الحلقات، وهذه الكتابة على قسمين:

قسم تناولت أصله في الحلقات المسجلة، والقسم الآخر إنما هو شيء جديد لم أتحدث عنه من قبل.

فأخذت في كتابة سير بعض الأشخاص الذين كان لهم يد طويلة في العمل للإسلام لكنهم صاروا مغمورين في هذا الزمان، وكتبت هذه الحلقات لمجلة «المجتمع» الكويتية، وعمدت إلى بعض الحلقات المسجلة التي نقلت إلى أوراق، والتي تكلمت فيها عن بعض أولئك العظماء فأعدت كتابتها ملخصة مهذبة سالمة من العلل التي ذكرتها آنفاً، وجمعت هذه كلها في كتب رأيت أن تخرج على الناس تباعاً، ولم أشأ أن أجمعها كلها في كتاب واحد يعظم حجمه وتعدد أجزاءه فيصعب على الناس قراءته، فأخرجها على هذا الوجه أيسر على الناس، ثم إنى لا أعلم متى يأتيني الأجل ويخترم العمر فالتعجيل بإخراج ما تيسر عمله خير من الانتظار حتى يكتمل العمل كله ثم لا ينزل منه شيء بعد ذلك، فكم من شيخ وعالم وطالب علم اخترمته المنية فمات وماتت معه أوراقه التي كتبها، وكتبه التي كان قد أعدها لكن لم يطبعها، فالحزم أن يُعجل في إخراج ما انتهى منه، والله المسئول بإتمام الباقي.

- هذا وقد أعدت قراءة تلك الحلقات التي أعدتها لمجلة «المجتمع» وأصلحت منها أشياء، وأضفت عليها أشياء رأيتها، حتى رضيته للناس



فأخرجت الجزء الأول من هذه السلسلة التى أرجو من الله -تعالى- أن يبارك فيها ويعظم لى أجرها، وأن يمد فى أجلى لأخرج سائر هذه السلاسل، ولأخرج ما أرى أنه نافع للناس، إن شاء الله تعالى.

هذا وقد اشترطت فى هذه التراجم التى كتبتها على نفسى الآتى:

١- الإيجاز، فقد تحقق -عندى- أن هذا الجليل لا يقرأ إلا قليلاً منه، ولا يقرأ هذا القليل إلا قليلاً، فلذلك عمدت إلى الإيجاز، مع إبراز العبر والعظات.

٢- أن تكون تلك الشخصيات من العصر الحديث الذى يبدأ -عندى- من أوائل القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى، وذلك لأن هذه الشخصيات عاشت فى زمن أحواله قريبة من أحوال عصرنا، وأحداثه مشابهة لأحداث زماننا، فذكر هذه الشخصيات -إذن- مفيد لأهل هذا الزمان.

٣- أن تكون هذه الشخصيات قد لحقت بربها؛ فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة، واستثنت الأستاذة مريم جميلة لما فى شخصيتها من الجوانب بالغة الأهمية لنساء عصرنا، مما لا أكاد أجد مثيلاً لها فى غيرها من النساء غير الشهيرات، ثم إنها الآن فى عشر الثمانين وأرجو أن يختم الله لها بخير.

٤- أن يكون أولئك العظماء قد أُسدل عليه ستار النسيان فلم يعد يعرفهم الجمهور الأعظم من الناس، عقوفاً وإهمالاً، فبعث سير هؤلاء من الأمور المهمة جداً لما تنطوى عليه حياتهم من عبر وعظات وتجارب جلية.



بل أزعـم أن هذه الشخصيات التي أوردتها في هذا الكتاب -وسأورد غيرها إن شاء الله تعالى- لم يعد يعرفها الجمهور الأعظم من الدعاة والصالحين والمشايع وإنا لله وإنا إليه راجعون، وإن عرفوا الأسماء فلا يعرفون الأعمال، وإن عرفوا شيئاً من الأعمال فقد فاتهم جملة مهمة منها.

وإليكم معشر القراء هذه السلسلة التي تحوى تراجم عشراً، وأرجو أن تتبعها سلاسل أخرى يكتب لى فيها كلها أجر إحياء ذكرها، إذ لا تسألوا معشر القراء عن التعب الذى تعبته فى جمع أخبارها المتفرقة خاصة تراجم العظماء من إفريقيا السوداء، لكن الله تعالى هو المستعان، وهو الذى أرجو أن ينيلنى على ذلك الأجر والثواب، وإليه سبحانه المرجع والمآب.

وصلّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

محمد بن موسى الشريف

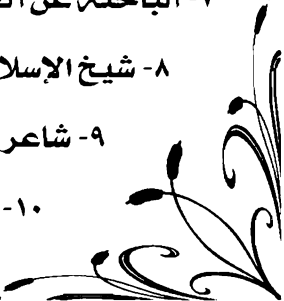
الموقع على الشبكة www.altareekh.com

البريد الإلكتروني mmalshreef@Hotmail.com





السلسلة الأولى

- ١- المجاهد البطل أحمد بن عرفان الشهيد.
 - ٢- المجاهد الداعية عثمان بن فودي.
 - ٣- المجاهد الداغستاني الإمام شامل.
 - ٤- الداعية العجيب عبد الرشيد إبراهيم.
 - ٥- الأمير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي.
 - ٦- أبو الأحرار محمد محمود الزبيري.
 - ٧- الباحثة عن الحقيقة مريم جميلة.
 - ٨- شيخ الإسلام مصطفى صبري التوقادي.
 - ٩- شاعر تركيا محمد عاكف أرسوى.
 - ١٠- الشيخ المجاهد سعيد بيران الكردي.
- 



[١]

المجاهد البطل

أحمد بن عرفان الشهيد

[١٢٠١ - ١٢٤٦ هـ] [١٧٨٧ - ١٨٣١ م]





لله ما أعظم تاريخ الإسلام والمسلمين في الهند، وكم في تلك الأراضي الشاسعة البعيدة من عظماء، وإذا قيل «الهند» في التاريخ فإنما هي اليوم الهند وباكستان وبنجلاديش بعد التقسيم السياسي الحديث عقب الحرب العالمية الثانية، فهي إذن أرض شاسعة ضخمة، كان للمسلمين فيها أمجاد عظيمة، وقد غربت شمس المسلمين فيها بانتهاء الدولة التيمورية المغولية التي كان من سلاطينها السلطان أورانج زيب عالمكير، شمس سلاطين المسلمين في أواخر العصر الوسيط وقبل بداية العصر الحديث^(١)، فلما سقطت تلك الدولة نهب الإنجليز ممتلكاتها وذهبت أدراج الرياح، وصارت أثراً بعد عين.

وصار المسلمون بعدها كالشياه بدون راعٍ في الليلة المطيرة المظلمة، فلم يعد لهم عقد جامع ولا سلطنة كافة، ولا إمام يسوسهم، وانتشرت فيهم البدع والخرافات، حتى أذن الله تعالى ببروز شمس أحمد بن عرفان الشهيد الذي أحيا في المسلمين في الهند شعيرة الجهاد، وخلصهم من كثير من البدع والخرافات، وكانت له أيادٍ بيضاء عليهم.

وهو من أسرة عريقة شريفة، لها صلة بعظماء الهند من آل بيت

(١) كنت قد تحدثت عنه -بفضل الله تعالى- في حلقة في قناة اقرأ، لكن بمنعني من إبراده في هذه السلسلة أنه ليس من أهل العصر الحديث فقد مات في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، رحمه الله رحمة واسعة لكن سيرته من أحسن السير، وتذكر بسيرة نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ومحمد الفاتح وأمثالهم رحمهم الله تعالى.



رسول الله ﷺ الذين كان لهم جهد ملحوظ في إقامة الشريعة في الهند وتربية المسلمين .

ولد في بلدة «راى بريلى» بالقرب من لكنو في الهند سنة ١٢٠١هـ أول القرن الثالث عشر، وتوفى في وادى بالا كوت شهيداً -إن شاء الله- سنة ١٢٤٦هـ-١٨٣١م، وعلى أن عمره قصير لكنه حافل بجلال الأعمال .

ولد والهند في قبضة الإنجليز يمتصون خيراتها، وينهبون ثرواتها، ويذيقون المسلمين صنوف العذاب، ويضيقون عليهم في مدارسهم ومساجدهم، ويمنعونهم من المناصب العالية ويقربون الهندوس منها، بل كانوا يمالئون الهنادكة والسيخ في عداوتهم للمسلمين، ومكنوهم من رقابهم، ثم إنه رأى كيف تأثر المسلمون ببدع وخرافات السيخ والهندوس حتى خيف على عقيدتهم منها، وعلى هذا فقد عاش في ظل أحوال صعبة، فماذا صنع رحمه الله؟

طلب العلم في الكتاب في صغره، لكن نفسه لم تمل إلى الدراسة فسرعان ما غادر المدرسة، وكانت همته في الجندية وأعمال الفروسية، والضرب والطعن، والرياضة من سباحة وبناء الجسد، وغير ذلك .

ولما بلغ من العمر عشرين سنة ذهب إلى لكنو ليلتحق بمعسكر للجهاد فيها، لكن نفسه كانت تتوق للذهاب إلى دهلى -وليس دهلى التى حرف اسمها الإنجليز- حيث مدرسة آل الدهلوى الذين كان على رأسهم مصلح الهند الكبير شاه ولى الله الدهلوى ولم يدركه، لكن أدرك ولديه اللذين رحبا به أعظم ترحيب لما عرفاه .



فمكث ينهل من العلم والعبادة والزهد والتربية حتى تآقت نفسه للجهاد الذى خلق له، فذهب إلى معسكر النواب -أى نائب السلطنة- ميرخان، واجتهد فى المعسكر هذا وتعلم ألواناً من فنون القتال، لكن نفسه لم تطب فيه بسبب أن ميرخان كان يقاتل للمغنم وليس له هدف واضح، وقد هادن الإنجليز فانسحب من معسكره.

وأقبل على إفادة الناس ودعوتهم إلى الحق، فاستجاب له عدد كبير، وكان منهج دعوته يقوم على إنكار البدع الكثيرة التى كانت فى المسلمين بسبب اختلاطهم بالهنداكة، وعلى إرجاع المسلمين إلى كتاب ربهم وسنة رسوله ﷺ، وتعليم الجهال أصول دينهم وفروع شريعتهم التى يحتاجون إليها، وقد أصلح الله على يديه عشرات الآلاف ممن تاب وأتاب، وأسلم على يده من الهنداكة جملة كبيرة.

ثم إنه أعلن فى كل أنحاء الهند سنة ١٢٣٦هـ أنه يريد الحج إلى بيت الله الحرام، وأن من لا زاد له فزاده عليه، فاجتمع عنده عدد متوسط يقدر بأربعمائة حاج.

وكان عدد من المشايخ ممن لا وعى له كافياً ولا فقه فى واقع زمانه قد أصدر فتاوى بإسقاط الحج عن مسلمى الهند بدعوى عدم الاستطاعة بسبب أخطار الطريق، وفاتهم أن الحج قد قام به ملايين من الهنود قبل ذلك وفى أحوال مشابهة فلم يضرهم ذلك إلا قليلاً، لكن كان للإنجليز أثر فى إصدار عدد من هذه الفتاوى؛ لأنهم -وأمثالهم من المستخريين (المستعمرين)- يحرصون على إبقاء المسلمين بعيداً عن الصلة بإخوانهم عن طريق منعهم



من الحج أو التضيق عليهم تضييقاً كبيراً، أو بلبلة المسلمين بنشر شائعات عن أمراض معدية في الحجاز أو أخطار محدقة بالطريق وهكذا، حتى لا يحج المسلمون ويتصلوا بإخوانهم.

وانطلق السيد أحمد بن عرفان الشهيد من بلدته راي بريلي بمن اجتمع معه، ومروا في طريقهم بعدد من المدن أقاموا في كل واحدة منها مدة يدعون إلى الله تعالى، ويصلحون بين الناس، ويذكرونهم بالله، حتى تاب آلاف مؤلفة في مرزابور وبنارس وكلكتا وغيرها.

وقد حدثت له طرائف في مرزا بُور، فمن ذلك أنهم أرادوا إفراغ حمولة الباخرة فتأخر الحمالون، وكان من العيب أن يباشر الأشراف والوجهاء والأغنياء الذين رافقوا السيد في الحملة العمل بأنفسهم، فشجعهم وابتدأ العمل بنفسه، وأنزلوا حمولة المراكب والناس ينظرون إليهم في دهشة لأن هذا لم يكن معتاداً في الهند، ولما رأى الحمارون -أى سائقو الحمير- ذلك التواضع دعوا السيد أحمد إلى بلدتهم فأجابهم، وكان ذلك صدمة للأغنياء والوجهاء والأشراف الذين رجوه ألا يصنع، وأن مؤاكلة الحمارين عيب كبير، لكنه بين لهم أن هؤلاء يقومون بخدمة جيدة، وأن الأنبياء كانوا يركبون الحمير فأى ضرر في إجابة دعوتهم؟! وحضر وليمتهم فأتابوه بعدها بأموال وهدايا، فرفض أن يأخذ منها شيئاً حتى لا يظن الناس أنه إنما صنع ذلك للدنيا.

وهكذا كان -رحمه الله- يغير التقاليد البالية بنفسه، حتى إنه لما تزوج أرملة أخيه إسحاق قام عليه الأشراف؛ وذلك لأن المسلمين في الهند



تأثروا بالهنادكة فى عدم الزوج من الأراامل ، فأبطل هذه السنة السيئة بنفسه رحمه الله .

وفى كلكتا تأخر ركب الحج قليلاً لإنجاز إجراءات السفر، فاستغل السيد ذلك ودعا إلى الله هو ومشايخ معه حتى تاب على أيديهم ألف، وتركوا معاقرة الخمر؛ التى كانت شائعة حتى أغلقت كثير من الحانات، وكسد سوق الخمر؛ فجاء تجارها إلى الحاكم الإنجليزى يطلبون منه إسقاط الضرائب عن الخمور لكساد سوقها فوافقهم، لكن إلى حين خروج أحمد ابن عرفان من كلكتا!!

وفى أثناء تنقله من مدينة إلى مدينة جاءه وفد من مسلمى التبت فقراء يريدون الحج معه فقال لهم: أنتم لا تستطيعون لفقركم، ودلهم على خير من ذلك ألا وهو الرجوع إلى التبت للدعوة، فأخبروه أنهم جهال فعقد لهم دورة شرعية وإيمانية عادوا على إثرها دعاة، وجوبوها فى التبت بمحن وشدائد لكن فى النهاية انساق كثير من الناس لدعوتهم، وانصلح حالهم، وأسلم من أسلم، وانتقلت الدعوة من التبت إلى الصين، وكان فى مشورة ابن عرفان الخير الكثير.

ثم تحرك الركب من كلكتا إلى الحجاز للحج فأدوا المناسك وعادوا فرحين، وامتدت مدة غيابهم قرابة ثلاث سنين بسبب وقوفهم فى أماكن عديدة للدعوة وتربية الناس وهدايتهم مدداً طويلة نسبياً، وأعاد الله بهذا الحج الثقة للمسلمين بسلامة درب الحج، وحصل خير عظيم، والله الحمد والمنة.



ثم إنه لما عاد من رحلة الحج سنة ١٢٣٩هـ أخذ في دعوة الناس - كعادته هو ومن معه - لكن نفسه تآقت للجهاد خاصة أنه وصلت إلى مسامعه أنباء المجازر التي يقيمها الشيخ للمسلمين في البنجاب، فأعد العدة ونادى في ربوع الهند بالجهاد في سبيل الله، واشتآقت النفوس، وسابق الأبناء الآباء، وتحرك بركبه يريد بلاد الأفغان يستنصرهم، لكنه وجد من بعض أمرائهم صدوداً فعاد في رحلة شاقة جداً إلى بشاور، واصطدم مع الشيخ في معارك انتهت بانتصاره وتأسيس إمارة إسلامية في بشاور، فوطد دعائم الأمن، وجبى الزكاة، وأقام الإسلام حتى تذكر الناس دولة الإسلام الأولى.

وأقام على ذلك أربع سنين تقريباً، لكن خيانة بعض أمراء الأفغان ضيقت عليه، حتى إنهم قتلوا القضاة والمشايخ والدعاة الذين أرسلهم السيد أحمد للدعوة في تلك البلاد فكانت صدمة عنيفة له، يضاف إلى هذه الهموم فتاوى مشايخ السوء الذين أفتوا بأنه وهابي، وأن قتاله جائز بل مطلوب، مما جعل عدداً من أتباعه ينفضون عنه، وهاجمه أمراء من الأفغان، فعزم على ترك بشاور واتجه إلى البنجاب، وقاتل الشيخ بزعامه قائدهم رنجيت سيخ وانتصر عليهم.

لكن المؤامرات ضده كانت مستمرة، فعقد العزم على التوجه إلى كشمير حيث دعاه أمراؤها ووعدوه النصر، فخرج من البنجاب في طريق محفوفة بالمخاطر، واتجه إلى كشمير لكن خانة بعض جنده المسلمين ودلوا الشيخ على قافلته، فهاجموها في وادي بالاكوت في ذى القعدة من سنة



١٢٤٦هـ/ ١٨٣١م، وقاتل هو ومن معه قتال الأبطال حتى استشهد وهو لا بس كفته، مقبل على ربه هو ورفيق دربه الشيخ إسماعيل بن عبدالغنى بن شاه ولي الله الدهلوى وعدد من أمرائه وجنده، بعد أن هجم عليهم الشيخ بجنود كثيرين.

واعتصم من بقى من جنده بالجبال، وواصلوا الجهاد فى أحوال صعبة جداً وبرد شديد وجوع وتعب، لكنهم صبروا وثبتوا سنوات حتى قضى على جهادهم الإنجليز، وحاكموهم محاكمات طويلة أظهروا فيها ضروباً من الثبات وصنوفاً من العزة، ما كانت لتخطر على بال أعدائهم، ولقد كان الواحد منهم يقدم على الإعدام أو السجن المؤبد راضياً صابراً ثابتاً، مما يدل على تربية أصيلة، وفهم جليل، وإقبال على الله وتجرد وإخلاص، نحسبهم كذلك والله حسيبهم.

هذا ومن أراد الاستزادة من الاستفادة، فليقرأ الكتاب الفذ الذى ألفه الأستاذ الكبير أبو الحسن الندوى رحمه الله تعالى وغفر له: «إذا هبت ريح الإيمان»، فمن قرأه مقبلاً بعقله وقلبه يرجى أن تهب ريحه، وأن يعظم عمله، وأن يقتدى بفعال ذلك المجاهد الكبير، الذى حركه الله للعمل فى وقت مات فيه الأمل، واضمحل العمل إلا من قليل كان منهم ذلك المجاهد الفذ والبطل العملاق.

تلك كانت دعوة أحمد بن عرفان الشهيد: جهاد باللسان تَوَجَّه به جهاد بالسنان، وهداية وإرشاد، وتربية وتعليم، ونقض العادات السيئة وإبطالها،



وإعزاز للمسلمين، وبث للثقة في قلوبهم، وصبر على مشاق الطريق،
وتضحية بالنفس والنفيس، فلو لم يكن له بعد ذلك من هذا كله إلا تثبيت
رحلة الحج واستمرارها، وجهاد السيخ الذين كان من ورائهم الإنجليز،
وهداية عشرات الآلاف من المسلمين والهندوس على يده، لو لم يكن له إلا
ذلك لكفاه، فكيف وقد أضاف إليه ما ذكرته، فرحمه الله رحمة واسعة،
وتقبله في الشهداء.





[٢]

المجاهد الداعية

عثمان بن فودي

[١١٦٨ - ١٢٣٢ هـ] [١٧٥٤ - ١٨١٧ م]





الحديث عن هذه الشخصية حديث ذو شجون، فهو حديث عن داعية، وعن عالم، وعن مجاهد، وليس عن مجاهد فقط بل مجاهد أقام دولة قوية، ومن ناحية أخرى يتطرق الحديث إلى دولة السودان الإسلامية التي تكونت في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، في زمن كانت فيه الدولة الإسلامية الأم -الدولة العثمانية- تنجح إلى الضعف والركود، وسائر الدول الأخرى كانت قد سلكت الطريق الذي سيؤدي بها إلى التفكك والزوال، إذًا إن الزمن الذي نشأت فيه هذه الدولة وعوامل تكوينها قد غاير تمامًا ما كان سائدًا في العالم الإسلامي آنذاك من الضعف والتهوى.

والشيخ عثمان بن فودي من إفريقيا السوداء، وأعلام تلك البلاد هم كالمجاهيل في عصرنا لقلة المصادر التي تحكى سيرتهم، ولصعوبة الوصول إلى قول فصل محايد في بعض الأحداث التي تتعلق بهم.

وعثمان بن فودي من أصول فُلَانِيَّة -فلاتية- نزع جده الحادي عشر موسى جُفَل من غرب إفريقيا في هجرات متتابعة للفُلَان يريدون الحجاز، ولأسباب غير معلومة توقف جده ومعه جماعته في بلاد الهوسا -نيجيريا اليوم- وجده من بطن من الفُلَان يسمون بالتوروي، وبلغه الهوسا تُونْكَاوا، وكان استقرار جده في تلك البلاد في القرن الحادي عشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.



ولد الشيخ عثمان - كما كان يلقب - سنة ١١٦٨ هـ أو ١١٦٩ هـ - ١٧٥٤ م، في مملكة جُوبرا إحدى ممالك بلاد الهوسا آنذاك وأقواها، ونشأ بين والدين صالحين وأخذ عنهما طرقاً من العلوم، ودرس الفقه والعقيدة والحديث واللغة على مشايخ الهوسا والبرنو والفلاته ليس بينهم عربى واحد، وهذا من نعمة الله على تلك البلاد فى ذلك الزمان أن جعل العلم الشرعى منتشرًا بين أهل البلاد أنفسهم، وبرع فى العلوم ومهر، وتقدم ونبغ حتى صار مجتهداً فى المذهب المالكي السائد آنذاك فى كل إفريقيا الشمالية والوسطى والغربية والشرقية، وهو ما يسمونه بالمجتهد النسبى وليس المطلق.

وتسامع به الناس، وأقبلوا على دروسه اليومية، ووعظه الأسبوعى، حتى صار له أتباع سُموا بالجماعة، وصار هو يلقب بالشيخ، وصار علماء عليه، حتى إن أبا بكر غومى أقضى قضاة نيجيريا ذكر فى سنة ١٣٨٣/١٩٦٣ أن الناس فى نيجيريا إذا ولد لهم ذكر وسموه بعثمان فإنهم يلقبونه بالشيخ تيمناً بالشيخ عثمان بن فودى.

حال الإسلام فى بلاد الهوسا آنذاك:

بلاد السودان كانت تطلق على بلاد شاسعة تمتد من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسى فيما كان يعرف بالسودان الشرقى والأوسط والغربى، ودوله اليوم: السودان وتشاد ونيجيريا والنيجر ومالى والسنغال تقريباً وجزء من الكاميرون.

وقد دخل الإسلام إلى بعض تلك البلاد منذ القرن الأول، لكن الانتشار والتمكين كان فى القرن الخامس يوم أن دخل المرابطون من



مراكش إلى السودان الغربى وأنشأوا مملكة مالى، وانتقل الإسلام -أيضاً- عن طريق التجار المسلمين من شمال إفريقيا وكانوا من البربر الصنهاجيين، وانتشر الإسلام بجهود الطوارق أيضاً، فاستنارت المنطقة بنور الإسلام منذ ألف سنة تقريباً.

وفى زمن الشيخ عثمان كان الناس على ثلاثة أقسام: قسم مسلمون، وقسم وثنيون، وقسم خلطوا بين الإسلام والوثنية، فكان لا بد له من معالجة هذا الأمر، فكانت طريقته فى دعوته ووعظه على الوجه التالى:

١- تعليم العامة أصول الدين وإبعادهم عن البدع الكثيرة المنتشرة آنذاك.

٢- مجالس الوعظ الأسبوعية التى كان يعقدها.

٣- تعليم العامة أمور دينهم من صلاة وزكاة وغيرها، ونهيهم عن المنكرات والمعاصى.

وكان الناس يتقاطرون عليه رجالاً ونساءً، وكانت النساء قبله ليس لهن حظ فى وعظ ولا درس، فشجع الرجال على إحضار نسائهم حتى يستفدن ويفقهن، وكان حضور النساء مدخلاً لأعدائه ليشنعوا عليه بدعوى أنه يخلط الرجال بالنساء.

وكانت صفاته الشخصية مؤهلة له لأمر عظيم، فقد كان صاحب همة عالية، كثير التجوال فى أنحاء بلاد الهوسا لإيصال الدعوة، حتى إنه مكث مرة فى إحدى النواحي خمس سنوات بعيداً عن وطنه من أجل تعليم الناس وإرشادهم، وهذه تضحيات جليلة لا يقدر عليها إلا عظماء الرجال، وكان



لا يكل ولا يمل من كثرة الدروس وطولها، مثابراً على إلقاء المحاضرات مثابة تدل على استعداده الكبير للبدل والتضحية.

ومن صفاته العظيمة إخلاصه وحسن صلته بالله، فقد أخبر ابنه والخليفة من بعده محمد بَلُو أن أباه كان إذا أراد الخروج للناس اعتزل في ناحية وتكلم بكلام لا يفهمه، فسأله فقال: يا بني إنى إذا أردت الخروج للدرس أو الوعظ سألت الله أن يسدنى وأن يفهم الناس عنى، وأجدد النية، وأعقد العزم على الإخلاص، وهذا منه -رحمه الله تعالى- فهم جليل وعمل صائب.

جهاده:

قد وفق الله هذا العالم لجهاد طويل مرير، وكان سبب ذلك أن سلطان جُوبراً: باواجن غَوَزُو دعاه في عيد الأضحى مع مجموعة من العلماء، وأهداهم هدايا كثيرة فرفضها الشيخ عثمان، وطلب من السلطان خمسة أمور:

١- الحرية في الدعوة إلى الإسلام والوعظ.

٢- رفع الضرائب الثقيلة عن الشعب.

٣- الإفراج عن المعتقلين السياسيين.

٤- احترام العلماء.

٥- ألا يمنع من رغب من رعاياه في الانضمام إلى الشيخ عثمان.

فاستجاب له السلطان، وجعله مفتياً لبلده.



ثم إنه خوفه بعض علماء السوء من جماعة الشيخ عثمان وازدياد عددها، فضيق عليه وحاول قتله لكن الله تعالى نجى الشيخ عثمان، ثم ما لبث باواجن أن مات وجاء من بعده ابنه نافعا الذى استمر على منهج أبيه فى التضيق على الشيخ.

ثم جاء بعده ابنه يُونُفا الذى كان من تلامذة الشيخ لكنه انقلب عليه، وأمر فى سلطنته بثلاثة أوامر:

١- ألا يعظ إلا الشيخ.

٢- ألا يتعمم الرجال ولا تختمر النساء.

٣- أن كل من أسلم ولم يكن الإسلام دين آبائه وأجداده فيرتد إلى ما كان عليه!!

وكانت هذه الأخيرة قاصمة الظهر التى لا يُصبر عليها، فأعلن الشيخ عثمان لجماعته وجوب الخروج من مملكة يونفا هذا، وفعلاً خرجوا إلى ولاية أخرى وكان عددهم خمسة آلاف، وانضم إليهم مثلهم فصاروا عشرة آلاف، وسأل الله تعالى أن يريه دولة الإسلام فى البلاد السودانية.

وهنا صار يونفا يضيق على الخارجين إلى الشيخ عثمان بأنواع من التضيق، حتى انتهى الأمر إلى إعلان الشيخ عثمان وجوب جهاد يونفا وإيقاف مظالمه، وبايعه جماعته على الجهاد واستعدوا بالسلاح، فهجم عليه يونفا بجيشه فهزمه الله هزيمة منكرة واستولت الجماعة على بلاده.

ثم إن سلاطين الهوسا تسامعوا بقوة جماعة الشيخ عثمان فضايقوا من كان منهم فى بلادهم، وأعلن بعضهم الحرب على الجماعة، فابتدأت سلسلة



طويلة صعبة من المعارك انتهت باستيلاء الشيخ وجماعته على كل بلاد الهوسا وأجزاء من بلاد الكامبيرون الآن، وأجزاء من تشاد، وأسسوا دولة ضخمة مساحتها تقريباً ١٥٠ ألف ميل، وسكانها قرابة عشرين مليوناً، وبويع الشيخ عثمان خليفة على هذه الدولة التي سميت بمملكة سوكوتو الإسلامية، وكانت هذه سابقة في تاريخ الدعوات الإسلامية الحديثة.

وعين الشيخ عثمان ابنه العالم محمداً بلو أميراً عاماً على شرق البلاد، وأخاه العالم عبدالله على غربها، وقسم بلاده إلى ثلاثين ولاية، وجعل عليها أمراء من أتباعه.

وفي ذلك الوقت برز خلاف بين عبد الله وأخيه الشيخ عثمان في جملة أمور منها: مسألة لبس الأمراء الملابس التي فيها ذهب وحرير مما غنموه من أعدائهم، لكن ليس على وجه الاستدامة بل يلبسونها إظهاراً للفرح ثم ينزعونها، ومنها مسألة استعمال الطبول في أفراح الانتصار، ومنها مسألة تصور الأمراء بصورة عظيمة إذا خرجوا إلى رعاياهم، وعدد آخر من المسائل، فأجابه الشيخ عثمان أن عمر -رضي الله عنه- ألبس سراقه سوارى كسرى وتاجه وهي من ذهب ليرى الصحابة تحقق المعجزة النبوية، وهؤلاء الأمراء يلبسون تلك الملابس إظهاراً لنعمة الله ثم ينزعونها، وأما المسألة الثانية والثالثة فقد بين له أن البيئة الهوساوية متعلقة بهذه المظاهر ولا تُساس الرعاية إلا بها، والأمر فيه خلاف وفيه سعة، وهكذا بين له ما اشتبه عليه في كل المسائل، لكن عبدالله لم يقتنع وأراد الخروج إلى المدينة النبوية المنورة فمنعه أهل كانو وقالوا له: إن أخاك بحاجة لمؤازرتك ومساعدتك فبقى.



ثم إن الشيخ عثمان توفى ولم يعين أحداً بعده، وكان ذلك فى سنة ١٢٣٢/١٨١٧ عن أربع وستين سنة تقريباً، وولى أهل الحل والعقد ابنه محمداً بُلُو فى مكانه، وبُلُو بلغه الفُلانى هو المعين والمساعد، وقد رضى بذلك عمه عبدالله بعد تمتع وبايعة، واستقر الأمر لمحمد الذى حكم قرابة إحدى وعشرين سنة واشتهر باسم أمير المؤمنين.

ولمّا توفى سنة ١٢٥٣، جاء بعده ابنه، ومن ثم حفيده، وبقيت الدولة مائة عام من سنة ١٨٠٣ إلى ١٩٠٣ حيث أسقطها الإنجليز سنة ١٩٠٣ فى عهد الطاهر أحد أحفاد الشيخ عثمان.

آثار دعوة الشيخ عثمان:

- ١- القضاء على الوثنية فى كل السودان تقريباً، والسودان الذى أعنيه هنا هو السودان التاريخى من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسى كما بينت سابقاً، وهذا إنجاز ضخم جداً.
- ٢- أعاد كثيراً من الناس إلى حظيرة الشرع والالتزام بالإسلام قولاً وعملاً واعتقاداً، وقضى على كثير من البدع.
- ٣- أنشأ دولة قوية مترامية الأطراف يهابها أعداء الإسلام، واستمرت شامخة مائة عام، ووضع لها دستوراً محكماً قوياً.
- ٤- أنتجت دعوة الشيخ عثمان نتاجاً ثقافياً ضخماً، فقد ترك مائة وأربعين مؤلفاً تقريباً فى الجوانب العقدية والسياسية والاقتصادية والفقهية وغيرها، وتخرج على يديه مائة عالم مجتهد فى المذهب المالكى، وهذا منه عمل عظيم على كثرة مشاغله وتشعب اهتماماته.



٥- ضبط مسألة الغلو في التكفير، وألف خمسين مؤلفاً تقريباً في الرد على من ذهب إلى التكفير بالمعصية، ومن ضمنهم شيخه الأثير جبريل بن عمر الذي أحبه كثيراً حتى قال فيه:

إن قيل فيّ بحسن الظن ما قليلاً فأنا موجة من أمواج جبريلاً
٦- حرر دارفور من الوثنية، ولذلك قصة عجيبة، وذلك أنه قبل أن يموت وصى أتباعه أنه إذا ظهر مهدي السودان فلينصره الفُلان - الفلاته - وكان هذا كرامة له، إذ بعد موته بمدة طويلة ظهر المهدي في السودان، ونصره الفُلان بالهجرة إليه خاصة بعد ضعف دولتهم، واستقروا في وادي النيل ودارفور.

ويقول رئيس السودان السابق إسماعيل الأزهرى للشيخ عمر محمد فلاته المجاور في مدينة رسول الله ﷺ والمدرس بحرهما الشريف: لولا أن الفُلان سكنوا دارفور لتحولت المنطقة إلى الوثنية كما حصل في جنوب السودان.

وقد كان المهدي السوداني يحب هؤلاء الفلاته حباً جماً، وتزوج منهم، وكان خليفته عبدالله التعايشي منهم، رحمهم الله تعالى.

وفي النهاية أقول:

إن هذه الثمرات الجليلة كانت لداعية عظيم، نصر الله تعالى به الدين في تلك البلاد، وقضى على كثير من البدع، وحمى الناس من الوثنية، وجمع بين العلم والدعوة والجهاد ورئاسة الدولة على وجه مبدع جليل، وهو أمر جديد على دعاة العصر الحديث، وصدق الله تعالى.



[۳]

المجاهد الداغستاني

الإمام شامل

[۱۲۱۲ - ۱۲۸۸ هـ] [۱۷۹۷ - ۱۸۷۱ م]





هو مجاهد من المجاهدين العظام فى زمن اشتدت فيه حاجتنا إلى المجاهدين العظماء، تعرض للشهادة فى موطنها، وأبى إلا أن يغترف من كأسها الطاهر المطهر، لكنه مات على فراشه بعد ملحمة طويلة، ومعارك جلية أذاق فيها الروس القياصرة الذل والهوان، وهزموا أمامه مراراً، هذا وروسيا آنذاك من القوى العالمية فى الطبقة الأولى، وكانت فى أوج عنفوانها وغطرستها، قد هزمت نابليون وتقدمت حتى دخلت باريس سنة ١٨١٦م!! والإمام شامل من داغستان، ولد فى قرية منها سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٧م، ونشأ فيها نشأة الأبطال الفرسان، على أنه درس بعض العلوم على مشايخ من بلاده.

وداغستان جزء من منطقة القوقاز الشمالى الذى يضم معها الشيشان والأنجوش وأوسيتيا، وهذه المنطقة مواجهة تماماً للروس، وهناك القوقاز الأوسط الذى هو جمهورية جورجيا الآن وكانت تعرف عند المسلمين بالكرج، وهناك القوقاز الجنوبى الذى فيه أذربيجان وأرمينيا.

والقوقاز غزاه المسلمون الأوائل وثبتوا فى جنوبه وفى مناطق فى شمال غربه، لكن لوعورة المنطقة ولكثرة طوائف وأديان ومذاهب أهلها لم يستطع المسلمون أن يتحركوا شمالاً، وغاية ما فعلوه أن سراقه بن عمرو الذى كان فى زمن الخليفة الأموى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية استطاع دخول تفليس (تبليس، عاصمة جورجيا اليوم).



ثم إن التتار ورأسهم تيمورلنك في مرحلة تحولهم إلى الإسلام نشروا الإسلام في أجزاء من الشيشان والداغستان والأنجوش.

ثم أرسلت الدولة العثمانية في مرحلة متأخرة نسيباً دعاء إلى الشيشان وأقنعوا جماعات من الشيشانيين بالتحول إلى الإسلام بعد أن كانوا وثنيين وكان هذا من قرابة ثلاثة قرون من الآن، وكان ذاك عملاً رائعاً في منطقة وعرة ضخمة بها أشجار بلوط ضخمة يبلغ ارتفاع بعضها مائتين وثمانين قدماً ومحيطها خمسة وثلاثين قدماً!! والمنطقة مليئة بهذه الأشجار، وبها جبال وعرة مما يصعب أى عمل عسكري فيها، وهذا من فضل الله على أولئك الدعاة.

ومنذ أن دخل الشيشانيون إلى الإسلام عمدوا إلى الدفاع عن الإسلام ورفع لوائه إلى يوم الناس هذا، ولم تغلح معهم كل محاولات التغريب والتنصير، وهناك شعوب دخلت قبلهم في الإسلام لكنها أجبرت على التحول إلى النصرانية عندما اجتاحت بلادهم الروس القياصرة، مثل شعب الكرج (جورجيا) التي دخلها الإسلام منذ عصر التابعين، لكن الشيشانيين ثبتوا والله الحمد.

وعظماء القوقاز - منذ دخلها الإسلام إلى هذا العصر - جملة وافرة، وعدد هائل لكن أين تراجعهم؟ وما لنا لا نعرف منهم إلا أفراداً معدودين على أصابع اليد الواحدة؟ أهذا جزء أولئك العظماء؟ لكن يبدو أنه قد اجتمع عليهم إهمال المسلمين وقلة اكتراثهم مع عوامل الخراب التي مرت على المنطقة فأفنت تواريخها وجهلت أهلها.



كان لشامل صاحب يكره بخمس سنوات يسمى غازى محمد ملا، وكان رفيق دربه، فكانا يدرسان معاً على المشايخ، ويدوران على المساجد، وابتدأ الجهاد معاً، وكان لبدء الجهاد سبب مؤثر وهو أن غازى ملا رأى النبى ﷺ فى المنام ثلاث مرات وهو يدعو للجهاد ضد الروس.

والروس آنذاك هم الذين ابتدأوا بالاعتداء، حيث كانت القيصرة كاترين تملكهم فأرسلت الجيوش إلى تلك المناطق، وتتابع القياصرة من بعدها على إرسال الجيوش.

ولابتداء الضعف فى الدولة العثمانية آنذاك -قبل قرابة مائتين وخمسين سنة من الآن- استطاع القياصرة أن يثبتوا احتلالهم لبعض المناطق هناك، وإضافة إلى ابتداء الضعف فى الدولة العثمانية كان هناك انعدام فى تنسيق المواقف بينها وبين الدولة الصفوية فى إيران بسبب تشيُّعها، وكان هناك دولة قبرطاي الإسلامية وهم من الشراكسة ولم ينسقوا أيضاً مع الحركة الجهادية ضد الروس، فأدى كل ذلك إلى احتلال الروس بعض المناطق فى القوقاز، وكان سائر العالم الإسلامى يغط فى نوم عميق أو مشغولاً بمشكلاته الداخلية.

تقدمت الدولة الروسية لتحتل القوقاز وكان يدفعها سببان رئيسان: أولهما أن القوقاز طريق إلى التركستان فإذا أخذوا القوقاز سهل عليهم الاستيلاء على التركستان، ومن ثم يتقدمون لأخذ الهند من المغول المسلمين -وهذا هو الدافع أو السبب الآخر- وفعلاً ما إن أسقطوا دولة شامل إلا ودخلوا طشقند عاصمة أوزبكستان إحدى جمهوريات التركستان، ولم يستغرق منهم هذا سوى سنة واحدة فقط بعد سقوط القوقاز.



لما رأى غازي محمد ملا النبي ﷺ في المنام ثلاث مرات يأمره ببدء الجهاد تحدث إلى الداغستانيين بهذا فأجابوه، وجاهد الروس ثلاث سنوات من سنة ١٨٢٩، ثم حوَّصر في بلدته غمرى هو وشامل ومن معهما، فقتل غازي محمد ملا، وهرب شامل.

ثم إن شاملاً استطاع أن يجمع فلول الداغستانيين وابتدئ الجهاد ضد الروس سنة ١٨٣٤ إلى سنة ١٨٣٩، وفي تلك السنة دل عليه بعض أمراء الداغستان الخونة وحاصره الروس بقوة ضخمة فيها مدافع لم يكن يملك الداغستانيون شيئاً حيالها، حيث كان الروس يدكون البيوت بها دكاً، لكن شاملاً استطاع الهرب أيضاً.

وبعد تفكير ومراجعة لأحواله في ظل خيانة أمراء الداغستان قرر التوجه إلى الشيشان، وهو معقل حصين جبلى كان أهله أقوى إيماناً من الداغستانيين وأوفى ذمة، وطبيعة الشعب الشيشاني الصعبة لا تسمح لهم بأن يرضخ بعضهم لبعض، فكانوا بحاجة إلى رجل غريب يُسلسون له قيادهم فكان هذا هو الإمام الذي استطاع أن يصل إلى القسم الجبلى من الشيشان، وجمع حوله فلول أتباعه من الداغستانيين الذين انهزموا من الروس، وبايعه أمراء الشيشان وقبائلهم، وأعلنوه إماماً عليهم له حق السمع والطاعة والجهاد معه في سبيل الله تعالى.

لما سمع القيصر بهروب شامل وما صنعه في الشيشان استشاط غضباً وطلب من قائده حسم المعركة مع شامل، فأرسل الجيوش إلى الشيشان وعلى رأسها أعظم القادة وأكثرهم خبرة في الحروب مع الداغستانيين ومع



نابليون، وقاومهم شامل ومن معه حتى اضطر القيصر لإرسال حملة عرفت بحملة دارجو وهي البلدة التي كان يتحصن فيها شامل وأمرأؤه، وكان حولها غابات كثيفة جداً، وكان قائد الحملة يسمى جراد لكنه لم يتمكن من الوصول إلى دارجو؛ حيث كمن له جيش شامل على أشجار البلوط الضخمة التي سبق وصفها، فكان فوق كل شجرة ٤٠ - ٥٠ من العساكر، وكانوا يسكبون الزيت المغلي على الروس، ويرمونهم بالحرايب والبنادق فحصدوا كثيراً منهم، وفشلت الحملة وعادت أدراجها بعد خسائر ثقيلة.

ثم جرت مناوشات بين شامل وجراد متفرقة.

وبعد ثلاث سنوات في سنة ١٨٤٥ أرسل القيصر حملة ضخمة قوامها ثلاثون ألف رجل بقيادة ضابط روسي فذّ اسم روندسوف، فمكر به شامل حيث جعله يتقدم في الأدغال إلى أن وصل إلى البلدة التي كان يتحصن بها شامل، وترك فيها مجموعات قليلة لمقاومة روندسوف الذي تغلب عليها، وسوّى بيوت البلد بالأرض بمدفعيته الضخمة، وفي طريق عودته - وكان فرحاً مسروراً بما صنع - كان الشيشانيون ينتظرون جيشه في الليل فانقضوا عليه كالأسود، وقتلوا منهم خمسة وعشرين ألفاً، ولم ينجُ إلا خمسة آلاف نصفهم جرحى، وقتل قواد روس كبار في المعركة.

- لقد كان شامل ومن معه من الصوفية النقشبندية الذين اشتهروا بالجهاد، وهي من أصفى الفرق الصوفية ومن أقلها بدعاً، وكان شامل ومن معه يسمون أنفسهم بالحركة المريدية، وكانت أصول الحركة المريدية تقوم على الشدة والقوة والفروسية وعلى الأذكار والأوراد، ووضع شامل لجيشه



نشيداً جهادياً جميلاً ينشدونه في معاركهم، وقد وصفتهم الكاتبة الأمريكية ليزا في كتابها: «سيوف الجنة» وقالت فيه: إن الشيشانيين كانوا يتقدمون للمعارك مع الروس وهم يرتلون القرآن الكريم، وينشدون أنشودة الموت التي تبعث فيهم الحماس والقوة.

بعد حملة دارجو الثانية عمد الروس إلى خطة مأكرة حيث لاينوا أمراء الشيشان ورعاتهم، وأمراء الداغستان فكانوا إذا أمسكوا بهم يطلقونهم ويكافئونهم بالأموال، وكانوا في المقابل يقسون على المجاهدين جداً، وبهذا الصنيع تأثر كثير من عامة الشيشانيين والداغستانيين، وكان هذا من أوائل بوادر الإخفاق الذي حدث لشامل بعد ذلك.

ارتكب شامل أخطاء عديدة، فقد كان رجلاً عسكرياً قوياً، شديد الشكيمة، صعب المراس، فكان يقسو أحياناً على أتباعه ويفرض حركته المريدة على الشيشانيين، فكان هذا يوجد نوعاً من التملل، فكان هذا خطأه الأول.

وثاني أخطائه الكبيرة أنه كان هناك رجل داغستاني اسمه مراد عدو شامل في الداغستان فأصلح بينهما الشيشانيون وصار نائباً ل شامل في الداغستان، وكانت هناك طائفة من أمراء الداغستان حسدة لمراد فأوغروا صدر شامل عليه وأقنعوه أن يولى ابنه غازي محمداً ولاية العهد من بعده، ففعل شامل وأخذ البيعة من الأمراء الشيشانيين والداغستانيين، وهذا الأمر أغضب الحاج مراد جداً فاستقل عن شامل والتحق بالروس، وهذه خيانة كبيرة لكن الحسد والحقْد اللذين استوليا على مراد وسوء التصرف من شامل أدى بمراد إلى هذا الذي صنعه، على أن الروس بعد ذلك غدروا به وسجنوه



ثم قتلوه، وهى نهاية أليمة لرجل دوخ الروس عشر سنوات، وكان له عمل جهادى جيد لكن أعوذ بالله من الحقد والحسد.

قسم شامل حركته المريدية تقسيمًا بارعًا، فكان له مائة نائب وألف مرشد ينتشرون فى القوقاز الشمالى، وكان الحاج مراد أحد النواب الكبار والساعد الأيمن لشامل الذى فقدته فى وقت كان فى أمس الحاجة إليه.

استمر المد والجزر بين شامل والروس سنوات طويلة، وقتل منهم جنودًا وقادة كثيرين، وهذا يعد عملاً رائعًا بالنسبة إلى قوة الشيشان الصغيرة أمام جحافل الروس لكنه الإيمان الذى يصنع العجائب.

ومن المعارك التى تستحق الذكر -أيضاً- أن الروس أرسلوا ولى عهد القيصر فى جيش فيه كبار القادة وثلاثون ألف جندى، كل هؤلاء توجهوا إلى بلدة صغيرة، فغطى الشيشان أبواب بيوتهم ونوافذهم بالطين فصارت البيوت كتلة واحدة، وغيروا سقوف بيوتهم إلى سقوف خفيفة رقيقة وغطوها بالتراب لتبدو كأنها هى السقوف الأصلية، فكان الروس يقفزون فوق السقوف فيقعون فى البيوت ليجدوا الشيشانيين المريدين أو المجاهدين فى انتظارهم فيعملون فيهم ذبحاً وقتلاً، فرجع الجيش خائباً خاسراً بسبب هذه الحيلة الذكية.

لكن شاملاً لم يكن يستطيع أن يصمد أمام هذه الحملات المتتابعة أكثر مما صمد، فقد بقى فى الجهاد قرابة ثلاثين عاماً، لذا كانت نهاية قصة الجهاد العظيمة هذه أن استسلم للروس بعد أن حوَصر فى خمسمائة من أتباعه فقط من قبل جيش يقدر بأربعين ألف جندى، لأنه رأى أن حقن دماء من بقى



من أتباعه أولى له بعد أن خانه عدد من أمراء الداغستان وخانته دولة الشراكسة القبرطاي، وسلم نفسه للروس سنة ١٨٥٩ - بعد ممانعة كبيرة من بعض أتباعه - فأخذوه إلى روسيا فبقى فيها مكرماً تسع سنوات من قبل القيصر والقادة.

ثم طلب من القيصر أن يسمح له بالحج فوافق بعد تردد، فرافقه حملة روسية إلى أن خرج من حدودهم، فحج ثم نزل مدينة رسول الله ﷺ فاستقر فيها مجاوراً ثلاث سنوات، ثم انتقل إلى جوار ربه سنة ١٨٧١ بعد جهاد دام قرابة ثلاثين سنة، ووقف صخرة شماء أمام أطماع القياصرة ونواياهم التوسعية في المنطقة القوقازية والتركستانية.

وكان من أهم أسباب إخفاق الحركة الجهادية المريدية الشاملية خيانات عدد من أمراء الداغستان، وقسوة شامل على أتباعه في بعض الأحيان وعلى سائر الشيشانيين فانفض عنه كثير منهم، وهناك عامل مهم هو عدم تنسيق الدولة العثمانية معه لضعفها آنذاك.

بعد استسلام شامل لم يستسلم الشيشانيون بل قاموا بثورات متتابعة، ثم إنه لما جاءت الدولة البلشفية انتقامت من الشيشانيين فاتهمهم ستالين بمساعدة الألمان فهجر كثيراً منهم، ثم عادوا إلى بلادهم سنة ١٩٥٧ بعد هلاك ستالين، واليوم الشيشانيون ما زالوا يكبدون الروس الخسائر الفادحة، ولم تهناً روسيا بالشيشان بعد شامل إلى يوم الناس هذا!! لكن الشيشانيين سيهنأون بالنصر قريباً إن شاء الله.



[٤]

الداعية العجيب

عبد الرشيد إبراهيم

[١٢٦٢ - ١٣٦٣ هـ] [١٨٤٦ - ١٩٤٤ م]





إن الحديث عن هذا الداعية يملأ النفس إيماناً وثقة بنصر الله تعالى لعبيده، حيث يرزقهم من آونة إلى أخرى برجال عظماء يعطون للإسلام بلا حدود، ويقدمون عصارة جهدهم ووقتهم وحياتهم لهذا الدين، وإذا أردت أن تعرف شيئاً عن أهلهم وأولادهم ووظائفهم ومناصبهم لم تظفر بشيء ذي بال، وهذا من أجل إخلاصهم ودأبهم وعطائهم كل شيء لدينهم فماذا بقي لغيره؟! فالله الله في أمثال هؤلاء، فلا بد للأجيال أن تطلع على سيرتهم، وتقف على أعمالهم وآثارهم، وتنهل من معين جهادهم وتضحياتهم، والناشئة اليوم لا تعرض عليهم سير العظماء على الوجه الذي ينبغي وتبرأ به الذمة، إنما يعرض لهم كل تافه وتافهة من الرويضات المسمين نجومًا وأبطالًا، ومن الواجب أن يحاكموا على ما اقترفوه من جرائم وإفساد في الأرض لا أن يكرموا ويرفعوا على رؤوس الأشهاد!!

هذا الداعية الكبير عاش في روسيا التي استولت قديماً على بلادهم، ولد سنة ١٨٤٦م ببلدة تارا في سيبيريا، وطلب العلم على مشايخ في بلاده، ثم لما بلغ من العمر اثنتي عشرة سنة ذهب إلى الحرمين ليملك في الأراضي الحجازية عشرين سنة يطلب العلم، وليعلن برحلته تلك ابتداء سلسلة من الرحلات الطويلة على مدار تسعين سنة تقريباً!! فأين ارتحل؟ ولماذا؟ وماذا حصل في رحلاته؟

كل هذا كتبه في جزأين نشر في تركيا قديماً بعنوان «عالم إسلام»، وصدق الأستاذ الكبير عبد الوهاب عزام حين قارن بين رحلته تلك المليئة



بالفوائد ورحلة ابن بطوطة المليئة بالخرافات والمجد الشخصي والحكايات التي ليس في أكثرها عبرة وعظة مناسبة لأبناء الزمان، ثم تحسر على اختفاء رحلة عبد الرشيد إبراهيم من المكتبات، وامتلائها برحلة ابن بطوطة!! هذا معنى كلامه -رحمه الله- الذي نقله الأستاذ الأديب محمد رجب البيومي حفظه الله ونفع بعلمه.

وسخر الله اليوم لرحلته هذه الأستاذ الكبير صالح السامرائي العراقي ثم الياباني، فاعتنى بها، وهى فى طريقها للخروج إلى القراء بحلة عربية قشبية إن شاء الله تعالى.

مكث داعيتنا فى الحجاز عشرين سنة ينهل من العلوم، ثم عاد إلى روسيا ليدعو إلى الله تعالى، وترامت أخباره إلى أسماع المسلمين فتوافدوا إليه واجتمعوا عليه فضيقت عليه السلطات الروسية القيصرية آنذاك فهرب إلى تركيا.

ولما هزمت اليابان القياصرة الروس وخفت حدة ظلمهم وانكسرت شوكتهم عاد إلى بلاده ونشر رسائل تدعو إلى الله تعالى، وتلقفها الناس وقبلوها.

لكن الأحداث المتتالية فى روسيا أوجت إليه بالارتحال، فشذ رحاله عازماً الذهاب فى رحلة طويلة إلى اليابان ماراً بمنشوريا ومنغوليا والصين وكوريا ثم اليابان، ثم الملايو ولم يكن آنذاك قد حصل التقسيم السياسى لها إلى عدة دول: ماليزيا وإندونيسيا وبروناي وسنغافورة، ثم الهند، ثم مر بجزيرة العرب وحج، وارتحل من هناك إلى بلاد الشام بالقطار العثمانى الذى كان قد افتتح قريباً، ثم سار إلى بيروت وارتحل منها إلى إستانبول، وكان ذلك سنة ١٩٠٧م.



ومن غرائب رحلته -التي فيها عبر وعظات كثيرة جداً- ما يلي:

١- مرّ على كوريا، فوجد الكوريين يعملون حمالين عند الصينيين واليابانيين، ويقضون حاجاتهم في الطرقات، فإذا جاء الليل أووا إلى حظائر للنوم، فقابل أحد الكوريين في القطار فسأله عن مستقبل الأمة الكورية، وكان من دأب الشيخ سؤال الناس عن مستقبل أمهم، أو أنه هو الذي ينظر في أوضاع الأمم ويتوقع أحوالاً ستمر بها، فرد الكورى باكياً: نحن أمة كالبهائم، نحن أمة لا مستقبل لها!!

وقد انتابني مشاعر غريبة وأنا أقرأ هذا في رحلته، فكوريا قبل أقل من مائة عام لم يكن أحد يتوقع لها أن تصل إلى شيء من الحضارة المادية، واليوم كوريا تصل إلى مستويات عالية في عالم التقنية والإنتاج، وهي أمة صغيرة قليلة بلا تاريخ ولا دين ولا حضارة سابقة، وكدت أبكى وأنا أتذكر أمتي ذات الحضارة العظيمة والتاريخ الرائع، والدين السامى الجليل، والتراث الذى ليس مثله تراث في الدنيا، تذكرت كل ذلك وقارنته بما نحن عليه اليوم من تخلف وضعف، وأين حالنا المتردى من حال كوريا، وللمقارنة فقط أقول إن براءات الاختراع التى ثبتت لكوريا من سنة ١٤٠٠- ١٤٢٠ / ١٩٨٠- ٢٠٠٠ كانت قرابة أربعة عشر ألف براءة، أما الدول العربية مجتمعة فكان ما ثبت لها في المدة نفسها قرابة أربعمائة براءة اختراع!! إنا لله وإنا إليه راجعون.

٢- مكث مدة في اليابان، وأعجب بها أيما إعجاب، بنظافتها، وأخلاق أهلها وأدبهم، وحسن استقبالهم للضيف، وصراحتهم وعدم خديعتهم، والنظام



الذى يسود حياتهم، والأهم من ذلك كله استعدادهم الكبير للإسلام، وقد استقر ذلك فى نفسه بعد مقابلات عديدة لأمرء ووزراء وكبراء.

وهذا الداعية العجيب لم يهدأ فى رحلته اليابانية، فقد زار المرافق والسجون والبرلمان، وزار الجامعات والمدارس والمراكز التجارية والبريد والأسواق والجمعيات، واطلع على علوم اليابانيين وحرفهم وطرائق عيشهم، وزار الناس على مختلف طبقاتهم، وكان يجلس إليهم، ويتحدث الساعات الطويلة معهم، ويقبل دعوتهم، وهذا شأن الداعية الذى يريد أن يؤثر فى العقول والقلوب، وقد حسن إليهم الإسلام بذكر محاسنه وفضائله، وكان لكل ذلك أثره فيما بعد، وقد أسلم عدد يسير من اليابانيين فى هذه الرحلة الأولى، وتعلم بهمته من اللغة فى وقت يسير ما استطاع بها أن يتفاهم مع القوم هنالك.

ثم غادر اليابان وفى عزمه الرجوع إليها، وعاد بعد مدة ليقيم فيها إقامة طويلة وليتوفى فيها سنة ١٣٦٤/١٩٤٤ رحمه الله تعالى عن قرابة مائة سنة، وكان من آثار عمله أن اعترف اليابان بالدين الإسلامى، وأنشئت عدة مساجد فيها، وأسلم عدد من أهلها، وكان له فيها قصة جليلة طويلة أحيل من يريد معرفتها إلى مذكراته، رحمه الله تعالى، لكنى أجتزئ هذا النص الجليل من ترجمة الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى له حيث قال:

«إذا ذهب مصلًّا إلى مسجد الإسلام بطوكيو عجب حين يرى الرجل الأسطورة فى الخامسة والتسعين من عمره ينهض قبل شروق الفجر فيقيم صلاة التهجد، ثم يؤم الناس فى صلاة الصبح، ولا يكاد يفرغ من تسبيحه



حتى يتحلق عليه جماعة من حواريه ليشرح لهم سور القرآن وحديث الرسول ﷺ، فإذا أشرقت الشمس انتقل إلى حجرة الدراسة الملحقة بالمسجد ليجد نفراً من صبيان المسلمين يستقبلونه فيقوم لهم بدور المعلم، يكتب لهذا لوحه، ويسمع من ذلك سورتة، ثم لا يستنكف أن يكون في هذه السن المتقدمة وبعد هذا الجهاد المتواصل معلم صبيان تُقرأ على يديه مبادئ اللغة العربية ويُحفظ الناشئة قصار السور من جزء عم، وبعض المأثور من حديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهو من كبار زعماء الإسلام في ثلاثة أجيال ناهزت القرن!!».

٣- كتب بعض القساوسة العاملين في الصين إلى وزارة خارجية بلاده يخبرها أن النصرانية تعاني من جهود عدو يزحف عليها بقوته، فبعثت وزارة الخارجية تسأل عن هذا العدو، فإذا بالإجابة المفاجئة أنه عبدالرشيد إبراهيم الذي حقق بعض المكاسب في الصين أمام النصرانية الزاحفة!! هذا وقد دار الرجل في الصين، والتقى ببعض المسلمين فيها، وكانت له جهود هنالك جيدة، فرحمه الله وغفر له.

٤- شارك في حرب طرابلس مع الليبيين ضد الإيطاليين الغزاة الذين أقبلوا كالجراد المنتشر ينشرون الخراب والفساد في الأرض، وكان ذلك سنة ١٩١٢، وكان آنذاك قريباً من السبعين من عمره!! لكنه كان من صنف من الرجال عظيم لا يقنع بشيء إلا أن يرى انتصار الإسلام وعلو رايته في كل مكان.



٥- ثم ذهب إلى ألمانيا ليكون بجوار أسرى الترك في الحرب العالمية الأولى ليخفف من أحزانهم، ويضمّد جراحهم.

٦- كل هذا كان يعمل به بقرّوش قليلة، وقد عانى كثيراً بسبب فقره المدقع، ولم يكن يجد ما يركب به في الباخرة أو القطار أحياناً، وإذا ركب ففي الدرجة الثالثة، وقد ظل في سبيل نشر الإسلام بعيداً عن أهله سنوات طوالاً، فما أعظم هذا الرجل! وما أحسن سيرته!

هذه شذرات من سيرة هذا الإمام الداعية الكبير الذي بخلت أكثر المصادر بإيراد سيرته، والتعريف بعمله، وهذه علة كبيرة في كتب وتراجم الرجال المعاصرين وسير حياتهم الجليلة، وأرى -والله أعلم- أن السبب هو قعود همة أكثر الباحثين والمنقبين عن التراث، وإلا فكيف يُغفل عن عظيم مثل هذا، ألا وإن في رحلته الجليلة «عالم إسلام» -التي تنتظر خروجها بالعربية بفارغ الصبر- معالم كثيرة من جهاده واجتهاده، وتجرده وإخلاصه، وأقواله وأعماله، وأحسب أنه مات يوم مات وهو في ذروة سامقة من العمل والجد والاجتهاد أحسبه كذلك والله حسيبه ولا أذكى على الله أحداً، فاللهم أعلِ درجته، وارفع منزلته، وأسبغ عليه من شآبيب رحمتك ومغفرتك، وعرف المسلمين بسيرته، وانشر عطر عمله، وأريج كلامه.





[٥]

الأمير المجاهد

محمد بن عبد الكريم الخطابي

[١٣٠١ - ١٣٨٢ هـ] [١٨٨٣ - ١٩٦٢ م]





قاضٍ شرعى، ومدرس، وصحفى، ومجاهد، وأمير، ورئيس دولة، نعم هذه الصفات اجتمعت كلها فى شخصية فريدة هى شخصية الأمير الكبير عبد الكريم الخطابي رحمه الله تعالى، ولئن سألت الناس عنه فى زماننا هذا لما عرفه إلا القليل، وهذه مصيبة كبرى من مصائبنا؛ إذ كم للإسلام من أبطال عميت سيرتهم على أكثر أهل زماننا هذا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولد فى بلدة أجدير فى الريف المغربى بين مِليلة وتطوان سنة ١٣٠١/١٨٨٣ ودرس القرآن والعربية، وذهب لإكمال دراسته، إلى مليلة وجامعة القرويين بفاس، وعاد منها ليعين نائباً للقاضى فى مليلة ثم قاضياً، ثم صار أقضى القضاة (قاضى القضاة) هذا وعمره آنذاك لم يتجاوز الثالثة والثلاثين، وهذا دليل على نبوغ مبكر، وكتب فى الصحف، ودرس فى بعض المدارس، وكان أبوه أميراً على البربر الذين فى الريف المغربى، وجاهد مع أبيه فى الحرب العالمية الأولى مع الدولة العثمانية وذلك سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٥م.

واعتقل الإسبان الذين كانت بأيديهم سبّعة ومليلة -وهى إلى الآن بأيديهم، وهذه من المصائب التى لا يعرفها أكثر المسلمين- اعتقلوا الخطابي ٤ أشهر ليضغطوا على أبيه حتى يكف عن الجهاد، وذلك أن الإسبان كانوا يريدون أن يتوسعوا ويخرجوا من سبّعة ومليلة ليحتلوا باقى مناطق المغرب الأقصى الشمالية، لكنهم لما حققوا مع الابن فاجأهم بألوان من العزة



والثبات، وأخبرهم أنه لا مناص له ولا لأبيه إلا أن يقاتلوا مع الدولة العثمانية، فاضطروا لسجنه لكنه تدلى بحبل من السجن ليفر، إلا أن الحبل كان قصيراً فتأرجح في الهواء فرمى بنفسه فانكسرت ساقه وأغمى عليه من الألم، فعثر عليه الإسبان فأعادوه إلى السجن حيث مكث أربعة أشهر ثم أطلقوا سراحه.

قتل والده في معركة مع الإسبان سنة ١٩٢٠ وقيل مات مسموماً، فאלله أعلم بما كان من ذلك.

وابتداً الأمير محمد سلسلة المعارك مع الإسبان وكان معه أخوه الذي نفى معه فيما بعد، وعمه عبدالسلام، فابتدأهم الأمير بمناوشات أسفرت عن انتصاره وطرده الإسبان من حاميتين مهمتين، بل كانت إحداها ذات موقع إستراتيجي فريد، فغضب الإسبان وأرسلوا له جيشاً من ستين ألف جندي وطائرات وعتاد ضخمة، لكنهم حذروا القائد العام للحملة من قوة الخطابي وبأسه فاستهزأ قائلاً: أنا ذاهب لأمسح حذائي في الريف!! وإسبانيا آنذاك ثالث قوة أوربية، وهى وسائر حليفاتها الأوربيات قد انتصرت في الحرب العالمية الأولى مما جعل زهوها وغرورها يعظم ويتضاعف.

- ولما اقتربت الحملة من بلدة أنوال بالريف كمن لها الخطابي في قوة من ثلاثة آلاف فمزق جيش الإسبان تمزيقاً مدهشاً، حيث قتل منهم ما يزيد على ثمانية عشر ألفاً، وأسر الباقي حتى لم يسلم من الجيش سوى ستمائة فقط، وغنم عشرين ألفاً بندقية، وأربعمائة رشاش ومليون طلقة، وطائرات!! وتفرق القتلى على مساحة خمسة أميال.



ونصر الله عبده الخطابي نصراً عجباً في وقت غريب، في زمن لا يتوقع فيه أحد أن ينتصر المسلمون على جيش أوربي مسلح بسلاح حديث، لكن الحماسة الإيمانية الدافقة التي كانت في قلب الخطابي وجيشه، ونصر الله تعالى له أولاً وآخرأ قلب كل المعادلات، وأخرس كل الألسنة.

وكان وقع الهزيمة في أوربا مدوياً، واستغل الخطابي الفرصة فظهر الريف المغربي من الإسبان وحصرهم في سبتة ومليلة فقط وهذا باقٍ كذلك إلى يوم الناس هذا، وأقام إمارة إسلامية مساحتها ٢٠,٠٠٠ كم^٢ وسكانها قرابة نصف مليون!!

- وأقام في إمارته أحكام الإسلام، ووطد دعائم الأمن، وأنشأ المدارس والمستشفيات، وأرسل البعثات إلى أوربا، وقلل جداً من حوادث الثأر بين القبائل، حتى إن الرجل كان يلقي قاتل أبيه وأخيه في المعارك مع إسبانيا فلا يمسّه بسوء؛ وذلك لأن الخطابي عمل مجلس شورى لإدارة الإمارة من ثمانين من رجال القبائل وأوكل إليه إدارة الأموال الجزيلة التي حصل عليها من فداء أسرى الإسبان، ومن الزكاة الشرعية التي يجمعها من رعيته، وكان يحاول إفهام رؤساء القبائل مؤامرات إسبانيا وفرنسا، وأنهما سبب كبير من أسباب تجهيل المغاربة، وهذا حديث يسمعه أولئك للمرة الأولى، فإنهم كانوا مشغولين بالثارات والقتال من أجل سفاسف الأمور ودناياها، فتركوا الثأر بهذه الطريقة.

وأرسى الأمير دعائم نظام تجنيد فريد حيث أوجب على كل الذكور الذين أعمارهم ما بين ١٦-٥٥ أن يتجنّدوا كل شهر خمسة عشر يوماً



ويعودوا إلى وظائفهم وأهليهم خمسة عشر يوماً وهكذا دواليك كل شهر، فضمن وجود الجند وضمن أيضاً حسن سير الإمارة واطمئنان الناس على أهليهم وأولادهم.

هذا كله عمله الخطابي في وقت كان المسلمون فيه في غاية من الضعف والهوان ليس بعدها غاية، واستطاع -وهو قاض شرعى- أن يفاجئ الإسبان بطرق عجيبة من القتال، فكان يحفر الخنادق، ويباغتهم في جبال الريف، حتى إن هوشى منه الشيوخ المشهور الفيتنامى الذى قاوم أمريكا مقاومة ضارية في الثمانينيات الهجرية وأوائل التسعينيات/ الستينيات والسبعينيات الميلادية، كان هوشى منه يقول إنه استفاد من طريقة الخطابي.

وهنا اجتمعت أوروبا لتجهض الإمارة الناشئة التى لو بقيت لغيرت مسار التاريخ، وسبب هذا أن الإسبان توجهوا سنة ١٩٢٤/ ١٣٤٣ إلى أجدير عاصمة الخطابي في مائة ألف وحاصروه ثلاثة أسابيع، فأظهر الخطابي ومن معه بطولات رائعة جداً ونادرة في وقت عزت فيه البطولة وانعدم النصر أمام الغرب في العصر الحديث، واستطاع الخطابي ومن معه أن يقتلوا من الإسبان أربعة آلاف في أقل الروايات، واضطر الجيش الإسبانى للانسحاب ذليلاً إلى مدريد.

وهذه وقائع جرت في العصر الحاضر وهى لا تكاد تصدق؛ لأن كل المعارك التى دخلناها مع الأوروبيين آنذاك كنا ننهزم فيها على وجه مهين، فأن ينهزم الإسبان الذين خرجوا ظافرين من الحرب العالمية الأولى على هذا الوجه فإن هذا يستدعى تحركاً من أوروبا، فأرسل المارشال المتجبر



المتكبر الفرنسي ليوتي -الذى كان حاكماً في الجزائر آنذاك- إلى فرنسا يقول لهم:

إن انتصار العرب في الريف الإسباني وعلى سواحل البحر المتوسط يعنى إنشاء إمبراطورية عربية إسلامية وفتحاً جديداً لأوروبا من قبل المسلمين، وهذا أمر لا يمكن القبول به، وبهذا التخويف دخلت فرنسا الحرب ضد الخطابي على رغم أنف البرلمان الذى كان معارضاً، فاجتمعت إسبانيا وفرنسا عليه فى جيش عدده زهاء نصف مليون، وحاصر الأسطول البريطانى الخطابى -والأسطول البريطانى كان أعظم أسطول بحرى فى العالم آنذاك- وكانت الطائرات التى حاربتة منتظمة فى أربعة وأربعين سرباً!! وصارت تقذفه وجنده بأنواع القنابل وهو صابر محتسب فى خندقه، وأوقع بهم فى أوقات خسائر جسيمة وصبر صبراً جميلاً، حتى إن صحفياً أمريكياً كان موجوداً آنذاك فى ساحة المعارك يتابعها وهو فانسن شين قال:

دخلت على عبدالكريم فى خندق أمامى، والطائرات الإسبانية والفرنسية تقذف المنطقة بحمم هائلة فوجدته مبتسماً مرحاً مقبلاً -الله أكبر ما أجمل وأحسن نفوس الصالحين- يضرب بيندقيته الطائرات، فتعجبت من هذا الرجل الذى استطاع أن يحافظ على إيمانه وعقيدته فى خضم الظروف المحيطة به، وكنت أتمنى أن أمكث أكثر فأكثر مع هذا الرجل العظيم الذى تحيطه هالة من الوقار والجلال، وأقارن به ساسة أوروبا التافهين المشغولين بأمور تافهة فلا أكاد أجد وجهاً للمقارنة، وتمنيت أن أظل أكثر مما ظللت مع هذه الظاهرة البشرية الفريدة التى تأثرت بها أيما تأثر اهـ.

أرأيتم كيف يؤثر المسلمون الصادقون فى الناس عامة وفى أعدائهم خاصة؟!



ويقول كورتى عضو مجلس العموم البريطانى:

إن هذا الرجل الذى ينادى باسمه أهل آسيا وإفريقيا والهند ويتغنون باسمه . . إن هذا الرجل الذى يزعم هؤلاء أنه يقاتل باسم الإسلام ويعيد إماراة المؤمنين والخلافة الإسلامية إنه لخطر عظيم على البلاد الأوربية!!

هكذا كان يؤثر فيهم الخطابى الذى لا يعرفه ولم يسمع باسمه أكثر المسلمين اليوم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكان المسلمون يستقبلون انتصارات الخطابى بدموع الفرح والاستبشار الشديد فى الهند وعموم آسيا وإفريقيا، وذلك أنه كان يجاهد أثناء وبعد إلغاء الخلافة العثمانية فكانوا يأملون عودتها على يديه.

لكن الكثرة الكاثرة تغلب الشجاعة، فجيش عبدالكريم كان عشرين ألفاً فقط وهؤلاء مئات الآلاف ومعهم الطائرات وكل الأسلحة التى هزموا بها ألمانيا وإيطاليا والدولة العثمانية، وخانت بعض الطرق الصوفية الخطابى حيث كانوا يوزعون منشورات تقول إن القتال معه ليس من الجهاد!! وخانه بعض رؤساء القبائل الذين اشتراهم الفرنسيون وكانوا ينهون شبابهم عن القتال مع الخطابى!! ولم يجد الخطابى الدعم من الدول العربية والإسلامية التى كان حكامها بين عميل ومشغول بمحنة بلاده، حيث كانت أكثر الدول العربية والإسلامية قد سقطت فى قبضة الصليبيين أو الشيوعيين أو عملائهما فلم يجد مفرّاً من التسليم بعد أن بقى فى مائتين فقط!! لكن كان التسليم تسليم الأبطال فقد بقى يفاوض للصالح زماناً طويلاً: من



منتصف سنة ١٩٢٥ إلى منتصف سنة ١٩٢٦ تقريباً / ١٣٤٥ هجرية، أى
سنة تقريباً!!

وكان يرفض الاستسلام رفضاً باتاً ابتداءً لكنه لما استشار المائتين الذين
بقوا معه أشاروا عليه بحقن الدماء، فالطائرات كانت تقذف بالغازات السامة
والقنابل وتقتل الرجال والنساء والأطفال، فأشاروا عليه بعقد صلح مشرف
والبقاء فى البلد والاستعداد للقتال فى أقرب فرصة.

وهنا لم يجد بداً من إمضاء الصلح، لكن الفرنسيين واصلوا قذف القرى
بالطائرات بعد التسليم، فقال لهم عبدالكريم: سيكون من المدهش أن
تصيب طائراتكم الرجال فى هذه المرة؛ إذ كانت العادة ألا تقتل إلا النساء!!
إن حضارتكم حضارة نيران، فأنتم تملكون قنابل كبيرة إذن أنتم متحضرون،
أما أنا فليس لدى سوى رصاصات بنادق وإذن فأنا متوحش!! وكان بهذا
يستهزئ بهم، ويقيم الحجة عليهم لأنهم كانوا يتهمون بالبربرية والتوحش!!
سبحان الله ما أشبه الليلة بالبارحة، فدعاة الإسلام اليوم يتهمون
بالإرهاب قلباً للحقائق وتخليلاً للمسلمين.

أوصى الأمير أتباعه بالاستمسك بالدين وعدم الركون إلى المستخرين
المحتلين، ولما سلم نفسه للفرنسيين - بعد كتاب صلح موثق وعلى أن يبقى
فى الريف - خانوا عهدهم معه كعادتهم وكعادة كل المستخرين الذين سمو
زوراً وبهتاناً بالمستعمرين، فنفوه إلى جزيرة رينيون فى المحيط الهادى شرق
مدغشقر لمدة إحدى وعشرين سنة!!



وكانوا قد منعوا عنه في السنوات العشر الأولى كل وسيلة اتصال بالعالم الخارجي، فحرموه من الجرايد والمجلات ومن كتبه التي أتى بها معه، ثم سمحوا له بعد ذلك بها، فقضى هذه المدة الطويلة في التأمل والذكر والدعاء والصلاة، فسبحان الله كم يُصبر عباده؛ إذ لو كان غيره لأصابه الجنون أو أمراض نفسية مزمنة لكنه الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فيصنع حينئذ ما يشبه المعجزات.

الفرج بعد الشدة:

ثم بدا لدولة الطغيان الفرنسية أن تعيده إلى فرنسا، فأتت به سفينة من الجزيرة ومرت بعدن للتزود فتسامع الصالحون من اليمنيين والعراقيين والفلسطينيين في عدن بمرور سفينة الخطابي، فأبرقوا لمصر وطلبوا من المكتب المغربي فيها أن يحتالوا لإنزال الخطابي من السفينة، وكانت سفينة تجارية، فدبر الأستاذ عبدالرحمن عزام الأمر -وهو أول رئيس للجامعة العربية، ومن العاملين نحسبه كذلك والله حسيبه- دبر الأمر مع الملك فاروق وكان ذلك سنة ١٩٤٧، وصعد برجال إلى السفينة وطلبوا من قائدها أن ينزل الخطابي لمقابلة الملك والسلام عليه هو وأخوه وعمه عبدالسلام، فمشت الحيلة على القبطان، وسمح بنزول الخطابي، فأبقتة مصر عندها، وهنا قامت قيامة فرنسا واثارت لكن بعد فوات الأوان، ومن الطريف أن فرنسا اتهمت مصر بالخيانة والغدر، سبحان الله فهم أهل الخيانة والغدر الذين نكثوا عهدهم مع الخطابي ونفوه إحدى وعشرين سنة.



واتصل الخطابي بدعاة مصر وفضلائها وكبارها وعلى رأسهم الأستاذ الإمام حسن البنا رحمه الله، وأعجب به وبدعوته، ولما وصله خبر اغتياله بكى وقال: يا ويح مصر والمصريين مما سيأتيهم من قتل البنا، قتلوا ولياً من أولياء الله، وإن لم يكن البنا ولياً فليس لله ولي!!

واتصل بمكتب المغرب العربي في القاهرة حيث عينوه رئيساً له، وأخوه كان نائباً له، وعمل مع أعضائه لتخليص بلادهم من الاستخواب الأجنبي البغيض، وهكذا الداعية لا يفتقر ولا يقعد، فبعد إحدى وعشرين سنة من النفي والعزل عاد الأسد إلى عرينه، واتقدت الشعلة التي أطفأها الطغيان، واتصل بالمغاربة، وبالحاج أمين الحسيني وجميعه الشبان المسلمين وجماعة الإخوان المسلمين.

ثم لما جاء الطاغية الهالك جمال عبدالناصر في انقلاب يوليو المشؤم سنة ١٩٥٢ بمصر فترت العلاقة بين الخطابي والثائرين، وكيف يلتقيان وهؤلاء منهجهم الارتزاق من موائد الشيوعية والرأسمالية، وطريقهم هو القهر والاستبداد، وعملهم هو إفساد البلاد والعباد، وهذا طريقه الجهاد في سبيل الله، ومنهجه الإسلام، وعمله دعوة في سبيل الله؟ فكانت النتيجة أن أهمله المسؤولون المصريون وضيقوا عليه الخناق فمات يوم مات سنة ١٣٨٢/١٩٦٢ ولم تذكره وسائل الإعلام بكلمة، ولم يؤنّ التأبين اللائق به.

لكن هكذا كل عظيم من الرجال يموت في هذا الزمان فقلما ينال ما يستحقه من إبراز لعمله، وإظهار لمآثره، وبيان لجهاده ودعوته، لكن لا



يضره أن العبيد أهملوه وملائكة السماء - إن شاء الله - استقبلوه، ولا يؤثر فيه إخمال سيرته إذا كانت مكتوبة في الملأ الأعلى بحروف من نور بإذن العزيز الغفور.

ونحن لن نياس أبداً إن شاء الله تعالى، ففي الإسلام عشرات الآلاف من الأبطال من أمثال الخطابي، وسيكون للإسلام دولة بإذنه تعالى على أيدي هؤلاء الأبطال.





[٦]

أبو الأحرار

محمد محمود الزيري

[١٣٣٧ - ١٣٨٤ هـ] [١٩١٩ - ١٩٦٥ م]





هو أبرز الشخصيات اليمنية فى القرن الرابع عشر / العشرين الميلادى، ولد سنة ١٣٣٧/١٩١٩، وقتل سنة ١٣٨٤/١٩٦٥، فعاش سبعا وأربعين سنة فقط لكنها كانت حافلة بجليل العمل وعظيمه.

كانت اليمن أكثر البلاد العربية تخلفاً فى القرن الماضى، فى كل جوانب الحياة تقريباً، إلا أنها كانت مختلفة عن سائر تلك البلاد بأمرين اثنين: بقاء أكثر أهلها على فطرة سليمة، وأن أرضها لم يطأها مستخرب أجنبى قط (فى قسمها الشمالى)، وحالها مثل حال البلاد السعودية آنذاك، وكان يعم البلاد جمود ثقافى وفكرى، وكانت تدار بنظام غريب، فلا وزارات، ولا نظام مالى، ولا تخطيط، واقتصادها ضعيف، وجنوب اليمن كانت مستخربة بريطانية، وأهل البلد موزعون على طبقات: طبقة السادة آل البيت ومنهم الحكام، ثم القضاة والعلماء، ثم التجار، ثم الزراع، ثم طبقة العمال الدنيا.

والمدارس قليلة جداً، والخدمات الصحية تكاد تكون منعدمة، والتنقل على الجمال والبغال والحمير فى الأغلب، واليمنيون يعانون من الأمية (٩٧٪)، والأمراض تفتك بهم ولا مستشفيات، والبلد تعاني من مجاعة فى كثير من أجزائها، وقد قال أحد الغربيين يصف اليمن آنذاك: «إن مصر متخلفة عن أوروبا مائة عام، أما اليمن فإنها لا زالت تعيش فى عصر ما قبل التوراة!!» وكلامه وإن كان فيه مبالغة لكنه يصف جوانب من الواقع وصفاً صادقا.



وكان الزبيرى -رحمه الله تعالى- من طبقة الشباب المتطلعين للإصلاح، وهى طبقة جهودها متصلة بجهود المصلحين اليمينيين ابتداء من إبراهيم الوزير المتوفى سنة ٨٤٠ مروراً بالمقبلى والحسن الجلال والأمير الصنعانى وانتهاء بخاتمة المصلحين من العلماء العاملين ألا وهو الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠، وكان أولئك المصلحون قد حاولوا بكل جهدهم التقليل من العصبيّة الزيدية الشيعية ونشر الوعي فى المجتمع، فتطلع إلى عملهم الزبيرى وأصحابه ممن يتطلعون إلى الإصلاح.

وهناك عامل آخر مؤثر فى مسيرتهم الإصلاحية ألا وهو اطلاعهم على تجارب الإصلاح فى العالم الإسلامى وعلى رأسها تجارب الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا والبنا وغيرهم من الدعاة والمصلحين.

وتأدب الزبيرى وصحبه بأعمال شوقى وحافظ إبراهيم والرافعى والعقاد وغيرهم.

ولد الزبيرى فى بستان السلطان فى صنعاء سنة ١٣٣٧ / ١٩١٧، وبستان السلطان حى منسوب إلى السلطان طغتكين بن أيوب أخى صلاح الدين الذى أرسل أخاه حاكماً على اليمن أواخر القرن السادس الهجرى، وأسرته أسرة عريقة فى التأليف والقضاء، وأبوه قاضٍ فى تهامة، ومات وعمر ابنه عشر سنوات فنشأ الزبيرى يتيماً.

والزبيرى ينتمى إلى قرية الزبيرات من أرحب من قبيلة بكيل.

حفظ القرآن وجوده على قراءة نافع وعلى رواية حفص منذ سن مبكرة،



وكان له صوت حسن فى الإمامة يجذب الناس إليه فى مسجد التقوى،
ودرس علوم اللغة على عدد من العلماء.

ولما بلغ عشرين سنة رافق الأمير على بن عبدالله الوزير إلى الحجاز
للحج، ثم إلى القاهرة حيث حدث تحول كبير فى حياته لأنه رأى فيها
نشاطاً سياسياً وأدبياً كبيراً، ونزل طالباً فى دار العلوم فيها، ونظم قصائد
شعرية وقد كان شاعراً فحلاً، شعره من الطبقة الأولى، ومن مميزات شعره
التي ميزته حتى عن شوقي أنه كان يفيض بالملت للطغيان والتنديد
بالاستخراب واليهود والمطالبة بالإصلاح، وكان يلقي شعره فى الكلية
والمحافل الأدبية.

واتصل بالبنا الذى قرب به وكان يرى فيه أملاً لإقامة الحكم الإسلامى
الصحيح فى اليمن، هذا كله وعمره ٢٢ سنة، وفى هذا دليل كبير على
نبوغه المبكر.

مكث فى القاهرة ثلاث سنوات عاد بعدها إلى اليمن منتصف سنة
١٣٦٠/١٩٤١ مرحباً به من طلابها وعلمائها، واستقبله الإمام يحيى فى
مجلسه، وقدم له الزبيرى مشروعاً عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى
٢٢ صفحة تحوى ٣٧ مادة، وأحاله الإمام للسيد زيد بن على الديلمى
الرئيس الأول للاستئناف العالى، وشكلت هيئة قضائية لدراسته ورفع تقرير
عن البرنامج وصاحبه.

وفى ذلك الوقت خطب الزبيرى خطبة بليغة فى الجامع الكبير فى صنعاء



نقد فيها الظلم والأوضاع السائدة فأمر الإمام بسجنه، وسجن مجموعة معه من المطالبين بحقوق الشعب، فمكث في السجن قرابة عشرة أشهر.

ثم كتب من سجنه قصيدة استعطف بها الإمام وولى عهده أحمد بن يحيى حاكم تعز فأطلقه الإمام يحيى.

ثم طلبه الأمير أحمد ليكون إلى جواره هو وزيد الموشكى والشامى وخطيب اليمن أحمد محمد نعمان، وكان أحمد يشاطرهم همومهم ظاهراً ويطارحهم الشعر، ويأمر بإخراج المساجين من رواد الإصلاح تودداً وتقرباً إلى الإصلاحيين، ولقب الزبيرى بأمر الشعراء ونعمان بأمر الخطباء، لكن سرعان ما اختلفوا وقال أحمد: أريد أن أتقرب إلى الله بدماء هؤلاء الأدباء الجدد!! فهرب الزبيرى ومن معه إلى عدن أوائل سنة ١٣٦٣/١٩٤٣ حيث اجتمع الإصلاحيون وانتخبوا الزبيرى رئيساً لحركتهم في عدن، وأفاض في شعره في عدن بالمطالبة بالإصلاح والحرية ورفع المظالم.

أنشأ الجمعية اليمنية الكبرى، وكان للإصلاحيين اجتماع باسم نادى الأحرار اليمنيين، وكان في الشمال تنظيمان: هيئة النضال في صنعاء، وهيئة الإصلاح في إب، وكان للتنظيمين اتصال بالحركة في صنعاء فجمعهم الزبيرى كلهم في الجمعية اليمنية الكبرى، وفي تلك الأثناء زار الإمام أحمد عدن وأبدى استعداده للإصلاح، لكن الحركة طالبته بجملة أمور كبرت عليه، ولم تنجح محاولة التوفيق بين أحمد والإصلاحيين.

أنشأت الحركة عدة صحف في عدن والقاهرة، وانضم إليها الأمير سيف الحق إبراهيم بن يحيى في عدن، وألقى بياناً قوياً في افتتاح الجمعية اليمنية



الكبرى ينعى فيه اليمن وجهه إلى الشعب وإلى الجامعة العربية، فاتصل الإمام يحيى بجورج السادس ملك بريطانيا وشكا إليه ما يجرى فسحب الإنجليز ترخيصهم لحزب الأحرار فانشق الحزب على نفسه، وعاد بعض أفرادهِ إلى تعز حيث سجنهم أحمد، ثم ولاهم مناصب صغيرة.

ثم فى ثورة سنة ١٣٦٧/ ١٩٤٨ أعدم أحمد منهم جماعة منهم زيد المشكى، وبعض المؤرخين يبرر خروج البعض بأنه أمر مخطط له وليس انشقاقاً.

وفى ذلك الوقت جاء من القاهرة المناضل الجزائرى الفضيل الورثانى بتنسيق وتوجيه من الإمام البنا، وأنشأ شركة للسيارات فى صنعاء أتاح له الاتصال بيحيى والتردد إلى عدن حيث يقيم الزبيرى، وأثر الفضيل فى الزبيرى تأثيراً بالغاً، وعده الزبيرى واحداً من عمالقة الإصلاح، واستطاع الفضيل أن يجمع بيوتات مهمة فى الأحرار: آل الوزير وآل المتوكل وآل النعمان وآل شرف الدين، وشارك الفضيل والبنا والزبيرى ومن معه فى إعداد الميثاق الوطنى المقدس الذى أظهر الإسلام شريعة مصدراً وحيداً للحكم، والشورى أساسه والنظام أسلوبه.

قامت الثورة على الإمام يحيى وقتل سنة ١٣٦٧/ ١٩٤٨ استعجالاً من بعض أفراد الإصلاح، وكان هذا أكبر خطأ وقع فيه رجال الثورة، ذلك لأن حكم الأئمة قد رسخ فى اليمن قروناً فأَنْ يقتل هذا الإمام على هذا النحو فهذا لا يرضى أحداً حتى الزبيرى نفسه، وقتلوا يحيى بعد أن جاوز الثمانين، وهذا عامل كبير فى تأليب القبائل على رجال الثورة بعد ذلك.



وقام عبدالله الوزير وسمى نفسه إماماً على اليمن وسمى علياً ابنه ولياً للعهد، وأرسل طلباً للجامعة العربية بإرسال وفدها إلى صنعاء من أجل تثبيت حكمه، لكن أحمد استطاع تأليب القبائل على الوزير ورجال الثورة، وحوصر في صنعاء، وفشلت الثورة، وقتل أحمد عدداً كبيراً من الأحرار، وقتل عبدالله الوزير.

وهرب الزبيرى إلى باكستان التى قضى فيها خمس سنوات صعبة، ومن العجيب أنه كان قد اضطرته الأحوال لبيع الأقفال والمفاتيح فى صندوق يضعه على صدره.

وفى ليلة من الليالى وهو يجول بصندوقه لقيه الشاعر الكبير عمر بهاء الدين الأميرى سفير سوريا فى باكستان فرجاه الزبيرى أن يكتم الخبر، لكن الأميرى أخبر الرفاعى سفير الأردن فى باكستان فأبلغ الملك عبدالله بن الحسين، فاتصل بالإمام أحمد فى اليمن وعرض عليه العفو عن الزبيرى فوافق أحمد لكن الزبيرى رفض العفو إلا أن يشمل الجميع.

واتصل بالزبيرى شيخ الإسلام شبير العثمانى الباكستانى، والقاضى محمد العمرى من قبل الإمام أحمد يطلبان منه العودة وأقسم أحمد أن يضعه فى أحسن المراكز، لكنه رفض واشتراط للرجوع إطلاق السجناء وإصلاح الأوضاع.

ثم عمل بوساطة شيخ الإسلام شبير العثمانى أستاذاً بجامعة كراتشى، وعمل مديعاً بصوت باكستان العربى وأقلع عنه الفقر برهة من الزمن، لكن



وفاة شيخ الإسلام ووفاة وزير التعليم أرجعته إلى سابق عهده من الفقر والظنك والعيش في كوخ حقير .

ولما قامت الثورة في مصر سنة ١٣٧٢/١٩٥٢ اتصل بسفيرها الشاعر عبدالوهاب عزام ووافقت مصر على عودة الزبيري إليها، ومن صوت العرب تحدث إلى اليمنيين، وأنشأ الاتحاد اليمني الذي عطله عبدالناصر سنة ١٣٧٦/ ١٩٥٦، لكن لما عارض أحمد الوحدة بين مصر وسوريا سنة ١٣٧٨/ ١٩٥٨ بأرجوزة مشهورة سمح عبدالناصر للاتحاد باستئناف نشاطه الصحفي والإذاعي، لكن فترت العلاقة بينه وبين عبدالناصر فيما بعد؛ وذلك لأن الزبيري كان مسلماً صحيح الإسلام، داعية إلى الله، مكافحاً عن دينه ومثله لا يطيقه ذلك الطاغية .

مكث الزبيري في القاهرة عشر سنوات احتضن فيها الطلبة اليمنيين منفقاً وقته وأكثر مرتبه عليهم، شاداً لهم إلى دينهم وقضايا وطنهم، وكان الشيخ الزنداني من أحب الطلبة إليه وقد لازم الزبيري حتى استشهاده، يقول عنه الشيخ الزنداني وكان معه في القاهرة^(١):

«لقد وجدنا شيخنا، لقد وجدنا من يصلح أن يكون قائداً لنا وموجهاً، وتعرفنا عليه، واطمأنت نفوسنا إليه، وأخذنا نزره في بيته وإذا بنا نكتشف عملاقاً من العمالقة» .

هذا وقد قال له الزبيري:

«لقد كنا نتحرك في الحركة الوطنية، وكنا نرجو من شبابنا أن يكونوا هم

(١) استقيت هذا من شريط مسجل للشيخ الزنداني ترجم فيه للزبيري .



المدد لنا ولكن سبقتنا الأحزاب هذه إليهم، وأصبحنا زعماء بغير جنود؛ لأن الجنود -وهم أبناؤنا- أخذتهم الأحزاب ونظمتهم في الخلايا، وأصارحكم وأقول إن سبب ذلك أننا قصرنا في تربية أبنائنا في الاتحاد اليمني تربية إيمانية إسلامية، لذلك من الآن سنصلح ما أفسدنا».

وكان يأخذ الشباب من الدقى إلى الأهرام مشياً على الأقدام وهي مسافة طويلة فيقولون له: لماذا يا أستاذ؟ فيقول: لا بد من الخشونة، لا بد من الرجولة، لا بد من الزهد والتقشف.

ثم يقول الزندانى:

وجدنا شيخاً أنشط من الشباب فطاوعناه، ثم صرنا نذهب إلى بيوت الطلاب نطرقها باباً باباً مشياً لا نركب لنوفر الفلوس، ثم استجاب له عدد من الطلاب الذين كانوا يدرسون في القاهرة وبايعوه أميناً عاماً لهم، وكانت حركة سرية.

بعد ثورة سنة ١٣٨٢ / ١٩٦٢ على البدر رجع الزبيرى إلى اليمن بطلب من الضباط الثوار الذين كانوا بحاجة لشخصية مثل الزبيرى تضيفى على حكمهم شرعية يحتاجون إليها وسط أجواء مليئة بخصوم الثورة من الملكيين.

واستقبل فى صنعاء استقبال الزعماء، وعين وزيراً للمعارف، لكنه وجد فى اليمن خليطاً من الأحزاب التى هى امتداد لأحزاب الجنوب الضالة، ووجد شعباً ممزقاً، ووجد خللاً فى الثورة وضبطها، فاعتزل الوزارة، وآلى على نفسه ألا يهدأ حتى تنصلح الأوضاع.



وقرر ضباط الثورة أن يجندوا الشعب فى تنظيم شعبى، وأوكلوا أمر إنشائه للزبيرى، فقال: التنظيم لا بد له من مقرات وموجهين، فمقراتنا المساجد وأعضاء التنظيم هم المصلون، والموجهون هم الأئمة والخطباء والعلماء، وجعل قاعدة الانطلاق الجامع الكبير فى صنعاء، وكان يدخل الحارات وينادى الناس فيجتمعون فى المسجد فيأخذ عليهم اليمين، ويطلب منهم أن يختاروا أميناً للتنظيم وأميناً للدعوة وأميناً للاتصال، فأمين الدعوة عالم، وأمين الاتصال شاب، ثم هناك جلستان فى الأسبوع: الإثنين والخميس، فاستقطب بهذا علماء صنعاء.

وعمل أعمالاً شعبية جيدة من تنظيف الحارات، واستقبال متطوعى الأطباء، وإقامة حلقات تحفيظ القرآن، وتسامع بذلك القبائل فطلبوا من الزبيرى أن يدخلهم فى هذا التنظيم الشعبى إعجاباً بأعماله.

وقد انزعج الروس من هذا التنظيم الجديد فطلبوا من القيادة العربية (المصرية) إيقافه فصدر الأمر بوقف العمل بالتنظيم فانزعج الزبيرى لكنه لم يئس، وطلب عقد مؤتمر شعبى يضم الملكيين والجمهوريين، واستطاع أن يجمعهم فى عمران - إحدى مناطق اليمن الشمالى القريبة من صنعاء - حيث أرسلت القبائل ممثلها، وأرسل العلماء ممثلهم، وأرسلت سائر النواحي من يمثلها.

وعقد المؤتمر وحضر ممثلون من الجيش، وقرر المؤتمر إلغاء المحاكم العسكرية وتكوين المحاكم الشرعية، وتكوين جيش شعبى من ٢٨ ألف مقاتل يؤازر الجيش الرسمى، وصدر قرار بتكوين مجلس للشورى وقرارات أخرى لضبط القضايا المالية وبعض الأمور السياسية الداخلية والخارجية.



واتفق المؤتمر على كيفية لتحويل القرارات من الورق إلى الواقع عن طريق تكوين حكم برلماني تكون المسؤولية فيه لرئيس الوزراء، وفوض المجتمعون الزبيرى لاختيار رئيس للوزراء، ووافق جميع أركان الدولة اليمنية على قرارات مؤتمر عمران لكن السلال كان فى القاهرة، فلما عاد كان مخالفاً لبعض القرارات لكنه تحت الضغط الشعبى استجاب فى الظاهر وماتل ماطلة كبيرة فلم ينفذ ما اتفق عليه، والسبب فى هذا أن المصريين لم يكونوا يرغبون فى تنفيذ هذه القرارات وهم قوة السلال واعتماده كان عليهم.

ولما خاب أمل الزبيرى فى السلال أنشأ حزب الله ليجمع فيه الجمهوريين والملكيين، لكنه لم يستمر إلا ثلاثة أشهر انتهت باغتياله، واغتيل وهو مستعد لعقد مؤتمر فى خَمِر عاصمة قبائل حاشد التى كان زعيمها عبدالله الأحمر -رئيس مجلس النواب اليمنى السابق- من أجل كتابة دستور جديد لليمن، فاغتيل فى جبال بَرُط وهو خارج من المسجد بعد صلاة الجماعة فى ذى الحجة سنة ١٣٨٤ / ١٩٦٥ فأرجو أن يكون قد نال الشهادة رحمه الله، قتل بعد أن خافه الملكيون الذين فاجأهم بالدعوة فى معاقلهم، وبعد أن كرهه الجمهوريون وشنعوا عليه فى وسائل إعلامهم، وبعد أن ضايقه المصريون أيماء مضايقة، ووفاء للزبيرى اجتمع الشعب فى مؤتمر وقرروا أن يكون الدستور قائماً على الإسلام، ثم أصبحت الثورة بين مد وجزر إلى أن قبض الله لليمن رجالاً ثبتوا فيه الإسلام وأبعدوه عن النزعات الناصرية والقومية والشيوعية.



كانت حياته قصيرة إذ عاش حوالى ست وأربعين سنة فقط لكنها كانت مليئة بجلال الأعمال، وكان زاهداً يؤثر الزهد فى شأنه كله، فقد أحضر له الضباط بعد الثورة أثاثاً من منزل الإمام فرفض أخذ شىء منه، وأصر فى وزارته ألا يأخذ من مرتبه شيئاً فوق حاجته فمات وهو مدين، ومنحته الجالية اليمنية فى السودان -الذى كان يزروه من أجل الدعوة والإصلاح- مبلغاً يستعين به على العيش فأصر على إرجاعه، ولما حج مع على بن عبدالله الوزير مدح الملك عبدالعزيز بقصيدة اهتز لها ابنه سعود، فأعطاه بضعة آلاف من الريالات وكانت مبلغاً كبيراً آنذاك فرفض العطية وأرجعها.

والزبيرى رائد كبير من رواد الإصلاح فى اليمن فهو أول من تقدم إلى الإمام يحيى ببرنامج إصلاحى، وأول من قاد معارضة منظمة، وأول وزير للتربية والتعليم، وأول من أنشأ حزباً، وقد رأى نفسه فى الرؤيا أنه يهز بيده جبلاً ضخماً فيتساقط، فهو -إذن- من ساهم بقوة فى إسقاط الحكم الإمامى.

له أربعة كتب يتضح فيها فهمه للمنهج الإسلامى وشمولية دعوته، وسموها على الوطنية والحزبية، وفيها تحدث عن الغزو الفكرى وضرورة الأخذ بالعلوم الحديثة، وله ديوانا شعر، وآلاف المقالات والبحوث والخطب، قال عنه الشيخ عبدالمجيد الزندانى وكانا مصاحباً له مدة طويلة:

«له قدرة بارعة على تجميع الناس على اختلاف انتماءاتهم الحزبية أو القبلية، ييش فى وجوههم، ويستمع إلى آرائهم، أحبه خصومه وأصدقائه».



ومن ريادته الواضحة أنه أنشأ أول مؤتمرات شعبية يشهدها العالم العربي كله وربما الإسلامى أيضاً وهذا عجيب أن يكون فى اليمن آنذاك، وكان الشعب يجتمع ويقرر بنفسه ماذا يريد وترفع القرارات للتنفيذ إلى رئاسة الجمهورية وتوافق رئاسة الجمهورية على ما يريده الشعب، كان هذا حدثاً فريداً وريادة جلية من الزبيرى -رحمه الله- الذى أنشأ هذا النظام الفريد، ولو قُدر للزبيرى أن يمتد به العمر ويمضى فى مشروعه هذا لتغير وجه اليمن، وربما المنطقة العربية كلها.

هكذا كان الزبيرى رحمه الله، وهكذا صنع وقدم، وبذل وضحى، فالذى يفهم الإسلام فهماً صحيحاً لا يمكن له أن يقبع مكانه فى ذل وهوان يأكل ويشرب وينام، لا يتحرك لفضائل الأعمال ولا لعظائم الأمور، إن الذى له هدف فى الحياة سام كالزبيرى لا يمكن إلا أن تكون حياته سلسلة متواصلة متشابكة من العطاء والبذل والتضحية، رحم الله الزبيرى، وأعلى درجته، وأعظم أجره.





[٧]

الباحثة عن الحقيقة

مريم جميلة





إن أقدار الله فى خلقه عجيبة، وتصاريفه مدهشة، وهدايته لخلقه تحار فيها العقول، ولا تدركها الأبصار، فمهما أراد من شىء حصل، وإذا قدر شيئاً وقضاه لا بد من وقوعه كما أمضاه، سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون.

كانت هذه مقدمة لا بد منها للحديث عن مريم جميلة، تلك اليهودية الأمريكية التى هداها الله تعالى للإسلام فى سياق عجيب، وجذب مدهش، وفى زمن لم يكن فيه للإسلام رواج، ولا للمسلمين سوق نافقة، ولكنها الهداية، لا تعرف الحواجز، ولا تقف دونها العقبات، وتنفذ إلى القلوب نفاذ الشمس إلى الأرض، وتسرى إلى العقول سراية الضياء إلى الظلام.

ولدت هذه المرأة العظيمة فى نيويورك ١٩٣٤، لأبوين يهوديين من أصل ألماني، واسمها كان «مارجريت ماركوس»، وكان لطريقة نشأتها فى تلك البيئة المثلثة بركام الجاهلية دليل على عناية الله تعالى بها، فهى لم تذق الخمر فى حياتها ولم تلتق بالرجال، ولم تحضر حفلات القوم، وكل هذا عجيب من مثلها.

وكانت وهى فى طفولتها تحضر الدروس التى تقيمها مدرسة الأحد اليهودية، وتسمع الخاخام وهو يخبرهم بأن العرب واليهود هم أولاد إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات وأتم التسليم، فصارت تتمنى أن



تذهب إلى فلسطين لرؤية أولاد عمها والاجتماع بهم، ثم إنها صدمت بعد ذلك يوم رأت أبيوها يحتفلان بقرار التقسيم سنة ١٩٤٧، ويجمعان التبرعات لإقامة الدولة المسخ، ثم يحتفلان بانتصار اليهود سنة ١٣٦٧هـ ١٩٤٨، فصارت تناقش أبيوها بقوة في إقامة دولة اليهود على أحزان العرب وآلامهم، فعجبا من كلامها.

ثم إنها أقبلت على القراءة المطولة والعجيبة من فتاة مثلها، فقد قادتها هذه القراءة إلى الهداية، وأبعدتها عن الغواية، وقرأت أول ما قرأت ترجمة القرآن للبريطاني المسلم محمد بيكتهول فتأثرت بما قرأت، وكان لقوة الترجمة أثر في حياتها لم يزل، وقد قارنت بين هذه الترجمة وترجمة يوسف على التي وصفتها بأنها ضعيفة وتبريرية، أى أن المترجم لم يستطع أن ينفك عن أسر النظرة الغربية وهو يترجم معانى كتاب الله تعالى، وهذه ملاحظة جيدة منها تدل على تعمق وفهم.

ثم إنها عثرت في مكتبة نيويورك العامة على كتاب مشكاة المصابيح مترجماً إلى الإنجليزية، وهو كتاب في الحديث النبوي الشريف فعكفت عليه حتى فرغت منه!! ولو سألت كثيراً من طلاب العلم منا اليوم ومثقفينا عن هذا الكتاب فلربما جهلوا عنوانه -دع عنك قراءته- ومن رحمة الله بها أنها اطلعت على هذا القدر الكبير من الأحاديث في مرحلة مبكرة، فهذا الاطلاع الواسع حماها من القرآنيين وضلالاتهم، واستطاعت أن تفهم الإسلام فهماً جليلاً باطلاعها على مصدره، والاغتراف من معينهما.



واصلت مريم دراستها الجامعية فى جامعة نيويورك، كلية الآداب لكنها مرضت فانقطعت عن الدراسة سنتين، وتناوشتها الوسواس فى مرضها من كل جانب حتى أهدت مدة، لكن الله تداركها بمزيد من القراءة والاطلاع الذى أوصلها إلى الهداية بعد ذلك.

والعجيب أنها استطاعت بهمتها ودأبها أن تتصل بشخصيات إسلامية رفيعة القدر فى عصرها، فقد أرسلت للبشير الإبراهيمى فى الجزائر، وسعيد رمضان فى جنيف، ومعروف الدواليبى فى سوريا، والأستاذ سيد قطب فى سجنه بالقاهرة، رحمة الله عليهم جميعاً، وقد دلها الأستاذ سعيد رمضان على الأستاذ سيد وطلب منها أن تراسله.

وأرسلت رسائل عديدة لشخصيات أخرى، لكن كانت نقطة التحول فى حياتها هى صلتها بالأستاذ المودودى رحمه الله تعالى، وقد عرفته بقرائها مقالة فى مجلة إسلامية كانت تصدر فى جنوب إفريقيا وأيضاً كان الأستاذ سيد هو الذى نصحها بالاتصال بالمودودى، وقد أعجبت بالمقالة جداً، وأرسلت للأستاذ رسالة على عنوانه فى باكستان، فما راعها إلا مجيء الجواب بعد قرابة شهرين فسرت به أيما سرور، واستمرت المراسلات بينهما قرابة ثلاث سنين، وكانت تنقل له فى مراسلتها ما يقال عنه فى إعلام أمريكا وكندا.

وهذه المراسلات اتضح منها عمق ثقافة مريم جميلة إلى الحد المدهش، فقد سألت أسئلة متنوعة عن عدة شخصيات وناقشته مناقشة مطولة فى أشياء بدرت منهم، فعلى سبيل المثال سألته عن شاه ولي الله الدهلوى وهو من



الأعلام الكبار فى تاريخ الهند ويعد من جملة المجددين ، حيث إنها ظنت أنه أراد اختراع مذهب جديد خارج عن المذاهب الأربعة ، فبين لها المودودى أن الشاه أراد أن يجتهد فى تقرير المذاهب الأربعة والاستفادة منها جميعاً ولم يكن كما ذهب ظنها .

وسألته عن إقبال الشاعر المشهور ، وقالت له : إن إقبال نصر القومية والوطنية فى شعره ، فصدقها الأستاذ المودودى وأخبرها أن هذا من الأمور التى بالغ فيها إقبال رحمه الله .

وسألته عن عبدالناصر وقالت إنه شخص يريد أن يعمل لنفسه ولمجده الشخصى ، وأن كل مساعداته لإفريقيا وغيرها تصب فى مصلحته الشخصية ، وهذا منها فهم دقيق فى ذلك الوقت العصيب الذى طغت فيه سمعة عبدالناصر على مفاهيم كثيرة ، وكانت شخصيته القوية ودعاواه القومية قد ضللت أكثر الناس ، فأن تفهم مريم جميلة شخصية عبدالناصر بهذا الوضوح فى آخر الخمسينيات فهذا يعد فهماً متقدماً .

وسألته عن أتاتورك والمآسى التى صنعها فى تركيا ، ولها قول جميل فى النورسى حيث قالت عنه : «إنه ليس بمبالغة أن نقول إن ما تبقى من الإيمان الإسلامى فى تركيا إنما يرجع إلى الجهود المثابرة لبديع الزمان النورسى» .

وسألته عن القاديانية التى كانت آنذاك فى بداية انتشارها وتأسيسها مساجدها الضرار فى أمريكا ، وهذه الأسئلة والمناقشات كلها قد جرت فى زمن يهوديتها ، وهذا عجيب ، فهى قد وصلت إلى مستوى رفيع من الفهم والنضج والوعى والثقافة وهى يهودية لم يصل إليه أغلب المسلمين !!



وانظروا إلى همة المودودي - رحمه الله تعالى - حيث لم يهمل الرد على رسالة امرأة يهودية على كثرة أشغاله، فكان في الرد على الرسالة، وعلى رسائلها كلها بعد ذلك خير كثير؛ فقد شرح الله صدرها للإسلام في سنة ١٣٨١-١٩٦١ فذهبت إلى إمام مسجد في بروكلين في نيويورك وهو داود فيصل وأسلمت على يديه، وسمت نفسها بمريم جميلة، وابتدأت في حياتها مدة عجيبة كلها ابتلاءات ومحن، فعلى سبيل المثال كانت تذهب إلى المسجد وتناقش المسلمين الذين كانوا يغضبون من آرائها عن عبدالناصر وأتاتورك!! وجاءها طالب سعودي في الجامعة ليخبرها أن على كل المسلمين أن يصلوا مع النصارى في كنيسة الجامعة، فإن لم يستطيعوا فعلى الأقل يحضرون دروس الأخلاق النصرانية في الجامعة!!!

ورأت المركز التجارى التونسى فى نيويورك فولجته سعيدة به لتفاجأ بالخمور تملأ المركز من أرضه إلى سقفه!! وفوجئت بأمرأة فرنسية موظفة فى المركز أخبرتها أن بورقيبة بدأ مرحلة جديدة فى تونس ترك فيها الدين خلف ظهره!!

وكانت بعد تخرجها فى الجامعة تبحث عن عمل فذهبت إلى المركز العربى فى نيويورك، فما إن عرفوا أنها كانت يهودية فأسلمت وأنها تعارض أعمال عبدالناصر وأفكاره حتى أعرضوا عنها بعد مقابلة باردة.

وكانت تصلى الجمعة فى المسجد، وقد اتفق الطلبة على أن يتداولوا الخطب فيما بينهم، فلما وصلتها النوبة كتبت خطبة بديدة رائعة عن وضع المسلمين وكيفية علاج أمراضهم، وألقاها أحد الطلبة نيابة عنها فقامت عليها



قيامه سائر الطلاب؛ لأنها ذكرت القومية ورموزها بسوء وبينت أنها علة
العلل في الجسم الإسلامي!!

وكان هناك من الطلاب من يشكك في الحديث النبوي!! ومن كان يزين
لها طريقة أتاتورك ونهرو!!

وهكذا تعرضت لمحن كثيرة في عقيدتها وفكرها وثقافتها، وخذلها
المسلمون الذين كانوا حولها في أمريكا أيما خذلان، وكانت تخبر الأستاذ
المودودي بكل هذا.

ثم بعد ذلك أخبرها والداها بأنهما سيتقاعدان قريباً ويتركان شقتهم ذات
الغرف الأربع التي ولدت فيها ويسكنان في شقة أخرى صغيرة، وأنها ليس
بوسعها أن تكون معهما ولا بد أن تدبر أمرها!! وقد كان عمرها آنذاك سبعة
وعشرين عاماً فضاقت عليها الدنيا.

وكان الأستاذ المودودي قد عرض عليها مراراً أن تنتقل إلى باكستان لكنها
كانت مترددة، ثم بعد كل الذي جرى عليها قررت الذهاب، وأقنع المودودي
أمها وأبأها برسالة لطيفة أرسلها إليهما وطمأنهما أن ابنتهما ستجد كل
الرعاية والاهتمام، وفعلاً حُزمت حقائبها وتركت نيويورك سنة ١٣٨٢ -
١٩٦٢ واتجهت إلى لاهور بالباخرة!! فبدا لها من رحلة شاقة لكن الإيمان
العظيم يذل المصاعب والمشاق، والغريب أنها وقفت في الإسكندرية ونزلت
من الباخرة، فصادفت مسجداً فصلت فيه، فسألها الإمام عن وجهتها
فأخبرته أنها ذاهبة إلى باكستان، فما كان منه إلا أن قال لها غفر الله له:
هل أنت غبية لتتركي أمريكا؟!



فانظروا رعاكم الله إلى هذا الإمام ومقدار فهمه وإلى صبر مريم جميلة على ما واجهته .

ثم إنها وصلت لاهور وأحسن إليها الأستاذ المودودي وأسكنها في بيته ستين، ثم إنه زوجها لأحد أتباعه وهو محمد يوسف خان، وهو متزوج وعنده خمسة من الأولاد، لكن هذه المرأة العجيبة لم تمنع في التعدد، وقد اقتنعت به وهي ما زالت في أمريكا، وكانت تغضب من المانعين له مثل بورقية أو من المبررين له تبريراً ضعيفاً، ثم طبقت بنفسها في لاهور، ومن الطريف أنها عرضت على المودودي الزواج لكنها كنهت اعتذاراً!! ولها ابنان وبتان واثنان عشر حفيداً.

وهي تعيش اليوم مع ضررتها في بيت واحد، وهي سعيدة بحياتها، وراضية، فافهم هذا يا أيتها النسوة اللاتي تقمن الدنيا على أزواجكن ولا تقعدن إذا اقترنوا بغيركن .

وعاشت في لاهور من سنة ١٣٨٣ - ١٩٦٣ إلى يوم الناس هذا ولم تخرج أبداً، ولم تعد إلى أمريكا التي يتمنى كثير منا الذهاب إليها والعيش فيها!!

وعاشت حياة إسلامية رائعة، وهي مشرفة على حلقات نسائية في بيتها، وما زالت تكتب الكتب وترسل الرسائل إلى الآن حفظها الله، وقد كلمتها بالهاتف ورجوتها أن تأتي للحج لكنها اعتلت على بضعفها وكبرها، وقلت لها: إن مجيئك إلى المملكة سيكون له أثر كبير على المسلمات اللواتي سيعرفن قصتك أو عرفنها لكنها اعتذرت حفظها الله، فقلت لها: ما هي



وصيتك للمسلمين فقالت: ادرسوا القرآن والحديث، ولا تتبعوا الحضارة الغربية، وادرسوا الثقافة الإسلامية.

وقفات مهمة في حياتها:

- ١- بقيت بضع سنوات وهي ملحدة تماماً بسبب أنها لم تجد ديناً يشبع نهمها الثقافي والفكري والروحي حتى أضاء حياتها الإسلام.
- ٢- لبست الحجاب الكامل والتزمت به، فلقد رأيت لها صورة وهي بالجلباب الأسود السابغ ولا يظهر من جسدها شيء، وهذه أعظم رسالة لكل المسلمات اللواتي يتساهلن في لبس الحجاب، ويتهاون به، فهذه كانت يهودية أمريكية فأسلمت والتزمت بالحجاب الكامل السابغ.
- ٣- حاولت أن تدعو والديها للإسلام مراراً عندما كانت في أمريكا وبعد وصولها إلى لاهور برسائل متعددة لكنهما رفضا، وماتا كافرين سنة ١٤٠٥ / ١٩٨٥، وهكذا الإيمان إذا تمكنت بشاشته من القلوب لا يستطيع صاحبه إلا أن يدعو من يحب إليه ولا يتصور قعوده عن تلك المهمة الجليلة.
- ٤- عدد كتبها التي ألقتها قرابة ١٤ كتاباً -وما زالت تؤلف حفظها الله- وكلها تفيض بروح وثابة، وفهم متميز، وإطلاع وثقافة واسعة وأفردت كتاباً في مأساة الفلسطينيين سمته أحمد خليل، ونشره الأستاذ المودودي في باكستان.
- ٥- تعد المودودي أعظم مفكرى القرن على أنها كانت تراسل شخصيات مثل



الأساتذة سيد قطب وجملة غيره ذكرتهم لكم فى ثنايا ما كتبته آنفاً، وهذه شهادة محترمة من امرأة واسعة الثقافة عظيمة الاطلاع مثلها.

٦- أظن أن القراء الكرام يوافقوننى على عدّ هذه المرأة مثلاً كبيراً ومهماً فى الوصول إلى الهداية عن طريق الاقتناع الكامل الذى تولد إثر قراءة مطولة وثقافة واسعة ومراسلات مع عدد كبير من الشخصيات الإسلامية رفيعة المستوى، وهى بهذا تصلح أن تكون مثلاً رائعاً لبنات جنسها اللواتى يقرأن قليلاً، وثقافة الكثرة الكاثرة منهن ضعيفة، بل ضعيفة جداً.

وأخيراً أقول ما أعظم التبعة الملقاة علينا فى إيصال الإسلام لكل البشر؛ إذ كم فيهم من أمثال مريم جميلة ممن يبحث عن الحق ويريده!!

وهذا هاتف ابنها حيدر خان فى أمريكا لمن أراد أن يتصل به، وهذا رقمها فى لاهور وأرجو من كل القراء أن يتصلوا بها ويهنئوها التهنئة المتأخرة!!

٠٠١٤٢٣٤٨٥١٤٢

٠٠٩٢٤٢٧١٥٥٧٠٢

وهذا بريد ابنها الإلكتروني Haiderkhan@hotmail.com





[٨]

شيخ الإسلام

مصطفى صبري التوقادي

[١٢٨٦ - ١٣٧٣ هـ] [١٨٦٩ - ١٩٥٤ م]





كانت تركيا عاصمة للخلافة والسلطنة أربعة قرون ونيف، ومن قبل ذلك ظلت قرنين ونيف شوكة فى حلق الكفار، وفتح السلطان محمد عاصمة الدنيا آنذاك القسطنطينية، وحمل الله بالعثمانيين الإسلام والمسلمين قروناً طويلة، ونفع بهم كثيراً، وأدخل فى الإسلام على أيديهم ملايين من الضالين، ووصل الأذان والتكبير على أيديهم إلى قلب أوروبا «البلقان»، ولهذه الدولة مآثر لا تحصى، وأعمال لا تحصر ولا تستقصى.

لكن سنة الله تعالى لا تتخلف، فقد ضعف السلاطين وأخلدوا إلى الأرض، ونسوا أن الجهاد عليهم فَرَضَ، ورضوا بالتمدد اليهودى والماسونى والقومى الطورانى فى أراضيم تهاوناً ثم ضعفاً، وحاول السلطان عبد الحميد إنقاذ الدولة لكن الرياح لم تكن مواتية، والعقبات كانت كبيرة وصعبة.

ثم عزل السلطان وتولى بعده من لا حول له ولا طول، وتربعت جمعية الاتحاد والترقى الماسونية على عرش البلاد، ومن ثم جاء الذئب الأغبر، والضال الأكبر مصطفى كمال الذى ألغى السلطنة سنة ١٩٢٢ ثم الخلافة سنة ١٩٢٤، وأعلن البلاد جمهورية إلحادية ضالة، وأمر بإلغاء الأذان بالعربية وإجبار النساء على السفور والرجال على لبس القبعات، وألغى الحرف العربى الذى كانت تكتب به اللغة التركية وألغى كثيراً من الكلمات العربية من اللغة التركية، ومنع الحج، وغرب الشعب التركى تماماً.

وفى هذه المدة الكالحة عاش شيخ الإسلام مصطفى صبرى أفندى رحمه الله تعالى.



ولد في توقاد من الأناضول سنة ١٢٨٦/١٨٦٩، ونشأ طالباً في كنف المذهب الحنفى الغالب في تركيا، وصار مدرساً في جامع السلطان محمد الفاتح وهو في الثانية والعشرين من عمره وكان أصغر المختارين لتولى هذا المنصب، وهو دال على نبوغ مبكر لاشك، وأجاز خمسين طالباً وهو عدد ضخم.

واختاره السلطان عبدالحميد -رحمه الله تعالى- ليكون أميناً لمكتبة قصره قصر يلدز، وهذا أتاح له أن يطلع على الكتب الثمينة التي كان قانون حفظ التراث يمانع من إخراجها خارج القصر.

ثم اختير نائباً عن بلده توقاد في مجلس المبعوثان العثماني، ومجلس المبعوثان هو مثل مجلس الشعب الذي يمثل فيه نواب مختارون من كل البلاد التي كانت تحت حكم الدولة العثمانية.

وكان آنذاك قد رأس تحرير مجلة «بيان الحق» وهي مجلة تصدرها الجمعية العلمية التي كان يرأسها.

وعين عضواً في «دار الحكمة» وهي تضم صفوة علماء الدولة العثمانية آنذاك.

وعينه السلطان في مجلس الأعيان العثماني.

وعين مدرساً للحديث الشريف في دار الحديث.

وعين عضواً في هيئة تدقيق المؤلفات الشرعية التابعة لدائرة المشيخة الإسلامية سنة ١٣٢٣ إلى غير ذلك من الوظائف.



لكن الذى لفت النظر إليه هو مقدرته الخطابية التى وظفها فى بيان عورات القوميين الطورانيين ونزعاتهم الإلحادية، وعورات الاتحاديين عموماً -نسبة إلى جمعية الاتحاد والترقى الماسونية التى أمسكت بزمام البلاد عملياً بعد خلع السلطان عبد الحميد، رحمه الله تعالى.

والكلام فى هذه الجمعية والاتحاديين يطول، لكن خلاصة أمرهم أنهم أغرقوا البلاد فى قومية طورانية تركية مفرطة، وعدوا المسلمين من غير الأتراك كالعرب والأكراد والألبان فى مرتبة تلى مرتبة الأتراك، وأذكوا نار العصبية الهائجة التى عجلت بإسقاط الدولة العثمانية، وإذهاب ريحها، وتفريق قوتها، وخدع المسلمون بنيازى وأنور وشوكت ومدحت وغيرهم من زعماء الاتحاديين ومدحهم مثل الشاعر حافظ إبراهيم وأثنى عليهم طائفة ثم تبين للناس سوء صنيعهم لكن بعد فوات الأوان.

وكان الشيخ قد أسس حزباً اسمه الائتلاف والحرية، أسسه مع بعض إخوانه، وكان نائباً لرئيس الحزب والناطق الرسمى باسمه ورئيس المعارضة البرلمانية، ولمقدرته الخطابية الفائقة صار أبرز الدعاة للحزب المروجين للسياسات المناهضة للاتحاديين والفاضحة لهم ولصلاتهم المشبوهة باليهود، وقد استفاد الشيخ مصطفى صبرى من موقعه فى المبعوثان -البرلمان- ليكشف عورات هؤلاء الاتحاديين القوميين، فدبروا لاغتياله، فهرب إلى مصر سنة ١٩١٣ ثم إلى أوروبا ليواصل التحذير من هؤلاء وكشف عوارهم وكانت إقامته ببوخارست برومانيا.

ثم قبضت عليه الجيوش التركية أثناء غزوهم رومانيا فى الحرب العالمية



الأولى وأرسلوه إلى إستانبول، وظل معتقلاً إلى أن انتهت الحرب بهزيمة الاتحاديين الأتراك وفرار هؤلاء الاتحاديين.

وعينه السلطان وحيد الدين شيخاً للإسلام في الدولة العثمانية، وعضواً في مجلس الشيوخ، وناب عن الصدر الأعظم -رئيس الوزراء- أثناء سفره لباريس للمفاوضات ستة أشهر، وهذا كله يدل على المكانة العلية التي كانت له آنذاك، ومنصب شيخ الإسلام يلي في الأهمية منصب الصدر الأعظم حسب أنظمة الدولة العثمانية آنذاك.

ثم جاء الكماليون بعد الاتحاديين، وعاث مصطفى كمال في الأرض فساداً، فاضطر مصطفى صبري أن يترك تركيا بعد قرار إلغاء السلطنة سنة ١٣٤١/١٩٢٢ وذهب إلى اليونان، وهناك حشد الأتراك حوله، وأصدر صحيفة تركية كشف فيها عن الوجه القبيح لمصطفى كمال وسياساته، فطلبت الحكومة التركية من اليونان إبعاده، فاضطر للسفر إلى مصر والاستقرار فيها، وكان ذلك في السنة نفسها ١٣٤١هـ/١٩٢٢م.

واستضافه الشريف حسين مدة في مكة ثم عاد إلى مصر وبقي فيها إلى أن مات سنة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م -رحمه الله تعالى-.

وكان له في القاهرة جهود ضخمة تمثلت في التالي:

أولاً: فضح مخططات الكمالين -نسبة إلى مصطفى كمال- ضد الإسلام والمسلمين في تركيا، وكان في ذلك مخالفاً لكثير من مثقفي المصريين الذين وقفوا مع مصطفى كمال ورأوا فيه منقذاً لتركيا، لذلك توالى هجمات



الصحف على شيخ الإسلام تتهمه بالرجعية والحنين إلى منصبه الذى فقدته فى تركيا، ومنعت كثيراً من مقالاته، وهنا وضع كتاباً سماه «النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة» طبعه فى لبنان التى خرج إليها بعد معارضة كثير من المصريين له، وقد فضح فى هذا الكتاب الكماليين وأعمالهم المعادية للإسلام والمسلمين فى تركيا، وذكر بأفعال الاتحاديين وأن أفعالهم وأفعال الكماليين تنطلق من مشكاة واحدة، وذكر أيضاً علاقة الاثنين باليهود، وقد كان وزير مالية الكماليين يهودياً، ووزيرة المعارف خالدة ضياء من أصل يهودى أيضاً.

ولما ألغى مصطفى كمال الخلافة بعد قرابة عام من وجود شيخ الإسلام فى مصر تبين للمخدوعين من المصريين صدق ما أخبرهم به شيخ الإسلام، ثم سافر من لبنان إلى رومانيا ثم اليونان التى أصدر فيها جريدة باسم «الغد» ثم أخرجته اليونانيون بناء على طلب الأتراك ف لجأ إلى مصر ثانية سنة ١٩٢٩م واستقر فيها إلى أن مات سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

ثانياً: كشف عوار الكتابات الخبيثة التى انتشرت فى مصر آنذاك:

وقد كانت تلك الكلمات الخبيثة تكتب فى مقالات فى الصحف السيارة وفى كتب، كان على رأسها: «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ على عبد الرازق، وقد ثبت فيما بعد أن طه حسين شاركه فى تأليف الكتاب، وفيه ذكراً أن الإسلام دين لا دولة، فتصدى شيخ الإسلام لهذا الكتاب وبين عواره.



ثم واجه شيخ الإسلام منكرى المعجزات والكرامات أو مؤولياها إلى حد إخراجها من أن تكون خوارق للعداءات، وكان منهم فى مصر نفر من ذوى المكانة والوجاهة، وإنما فعلوا ذلك مسائرة للعقل -فيما زعموا- ولتبدو متفقة مع طبائع الأشياء، فرد على الأستاذ محمد عبده ومحمد فريد وجدى ومحمد حسين هيكل وجماعة غيرهم، والحق أن رده كان شديداً صعباً لكنه متفق مع طبيعته الحادة وشخصيته القوية، ثم إن الملاء فى مصر آنذاك كان قد انجرف فريق منهم مع هذه الدعاوى فكان لا بد من ظهور صوت قوى لينذر ويحذر ويعيد الحق إلى نصابه، ولعل كتابه «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين» هو أهم مؤلف له فى هذا الباب، الكاشف لهذه الأخطاء، وهو ضخّم جاء فى أربعة أجزاء وفى بعضه نزعة فلسفية.

ثم أصدر كتاب «قولى فى المرأة» فى سنة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٤م، رد فيه على اقتراح قدم إلى مجلس النواب المصرى طلب فيه مقدموه تعديل قانون الأحوال الشخصية، والأخذ بمبدأ تقييد تعدد الزوجات وتقييد الطلاق والتساوى فى الميراث بين الذكور والإناث، إلى آخر المنظومة المكرورة المكروهة.

وله كتاب رد فيه على مسألة ترجمة معانى القرآن الكريم التى أثارها الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر، وكان الشيخ مصطفى صبرى معارضاً لها كل المعارضة، وقد استقر المسلمون اليوم على جواز ترجمة المعانى بلا نكير، لكن لعل رده على الشيخ المراغى كان -إضافة إلى ما سبق- بسبب أن المراغى أجاز الصلاة بالقرآن المترجم إلى التركية وغيرها،



وهذا هو الذى أثار الشيخ مصطفى صبرى؛ لأن هذا كان صنيع الكمالين فى تركيا، وكأن المراغى بهذا يبرر صنيعهم ويجوز فعلتهم.

وله عدة كتب غير هذه، وله مئات المقالات بالعربية والتركية.

وقد كانت الحكومة التركية قد وضعت اسمه فى قائمة المنوعين من الرجوع إلى تركيا، وجردته من الجنسية التركية، فعاش فى مصر فى شدة وشظف عيش، وقاسى كثيراً مادياً ومعنوياً حتى أنه اضطر لبيع كتبه ليسافر من إستانبول إلى مصر بالباخرة مع أسرته فى الدرجة الثالثة، لكنه ثبت فلم يضعف ولم يهن ولم يتراجع عما رآه حقاً، وأزعم أن مصر آنذاك كانت بحاجة إلى عالم ربانى قوى مثله فى مدة تنازعها الأهواء من كل جانب، وقَلَّ فيها العلماء الربانيون الذين يقومون بما أخذه الله عليهم من القيام به.

معالم فى شخصية شيخ الإسلام:

فى شخصية شيخ الإسلام مصطفى صبرى معالم مهمة تعد بمثابة أركان البناء، وصبغت بها كتاباته صبغة ظاهرة، فمن هذه المعالم:

أولاً: الاستقلال الفكرى:

فلم يكن يتبع جهة ما كائنة ما كانت، ولا يقيم لشخصية ولا لهيئة وزناً إلا بقدر اتباعها للحق وخضوعها له، وهذا فى زمانه أمر صعب لا يقوى عليه إلا القليل، والشيخ رشيد رضا يشبهه فى هذا الباب -بعد وفاة شيخه محمد عبده- إلا أنه لم يصل إلى مرتبته فى هذا الأمر خاصة، وبسبب هذا الاستقلال فى فكر الشيخ مصطفى فقد نقد كثيراً من الشخصيات القديمة



والحديثة، إسلامية وغير إسلامية ، ولما قيل له: كيف تنقد هؤلاء الأعلام؟ قال: إن كتابي كتاب مبادئ لا كتاب تراجم.

ثانياً: صلابته في الحق وفي الدعوة إليه:

فقد كان ينبرى للدفاع عما يراه حقاً بأسلوب قوى وعبارات شديدة أحياناً وربما وصلت إلى حد الاتهام لبعض الأعلام، وهذا أثار عليه نقمة أشخاص كثيرين ووجه بمضايقات كثيرة، لكن هذا كان طبع الرجل لا يستطيع الانفكاك عنه.

وأزعم أنه -فيما قرأته له- قد أصاب في كثير من نقده، وجانبه التوفيق في القليل، وذلك لأن زمانه كان حافلاً بالمتفلتين والعقلانيين والمسايرين لركاب الغرب وأفكاره وتصوراته، وكان منهم أعلام وشخصيات كبيرة مصرية، وكان من ينقد هؤلاء مثل الكبريت الأحمر في قَلْتِه، فقام الرجل بما رآه حقاً وواجباً لا يلوى على شيء، ولا يدارى أحداً.

وقد كان هؤلاء النفر -غفر الله لهم- قد تكلموا بكلمات فيها تجاوز وفيها خطورة، فكان لا بد أن يُردَّ عليهم ردّاً قوياً مفحماً، وكان بعض هؤلاء قد التبست بعض أحوالهم إلى الحد الذي ينبغي أن يتكلم في شأنهم متكلم ما، فكان هذا المتكلم الجريء هو شيخ الإسلام مصطفى صبري، ومن أجل ألا أغرق في التعمية أحيل القارئ إلى المجلدين: الأول والرابع من كتاب «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» ففيهما تفصيل وتصريح وتوضيح، ولولا أن حال بعض هؤلاء الذي رد



عليهم الشيخ ما زال ملتبساً علىّ، وليس عندى كلمة فصل فيهم لذكرت أسماءهم اللامعة وبعض أحوالهم الشاطحة.

ولا ينسى أيضاً أن مصر فى أوائل القرن الماضى حتى الثلث الأول منه بل إلى قريب من منتصفه كانت معتركا كبيرا بين المتغربين والمستشرقين والمشبهين وبين المخلصين، وكان فى بعض هؤلاء المخلصين -على قلتهم- قدر غير قليل من الخلط والخطأ فى فهم هذا الدين وتفنيده بعض الشبهات حوله، وكان فى بعض أحوالهم ما يدعو إلى العجب والتساؤل، ولذلك كان ما كان من موقف شيخ الإسلام.

وأزعم أن الله أنجد مصر بعد ذلك برجال مفكرين عظماء صححوا مسيرة الفكر الإسلامى عموماً بعيداً عن التهاون والشطح والتنازل، وطووا بذلك صفحة أولئك الذين كان لهم جهد مشكور فى الدفاع عن الإسلام لكن امتزجت جهودهم تلك بشوائب من الأحوال والأقوال كان لا بد من تنقيتها وتهذيبها فأتى الله بكوكبة من المشايخ من مصر نفسها عدلت المسار، وضبطت الأفكار، وكتبت كتابات رائعة أزعم أن شيخ الإسلام لو اطلع عليها لقرت بها عينه، والمقام لا يتسع للتفصيل، وفيما ذكرت كفاية، ولعلنى أعود إلى ذلك فى مقام آخر متوسعاً مفصلاً إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: تضلعه من علم الكلام

وهذا ظهر بوضوح فى مؤلفه: «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين»، وقد كان فى زمن انتشار فيه الإلحاد، وعم وطم، وكان الرجل متحمساً لإثبات وجود الله تعالى بأدلة عقلية كلامية، وبنزعة فلسفية أحياناً.



رابعاً: شجاعته:

كان شيخ الإسلام ذا شجاعة عظيمة مكنته من مواجهة الاتحاديين ثم الكماليين ثم المتغربين في مصر -خاصة- وفي غيرها، ولم يأبه بما قد يتعرض له من أذى أو اغتيال، ونبرته الشجاعة واضحة كل الوضوح في كتاباته.

خامساً: حماسه وهمته:

كان شيخ الإسلام ذا حماسة واضحة، وهمة عالية، وقد ثبت على هذه الحماسة والهمة دهرًا طويلاً حتى توفاه الله تعالى، فلم ينتكس أو يضعف أو يلن رحمه الله.

سادساً: وعيه الكبير بمخططات الأعداء، وشبهات المستشرقين والمستغربين:

وهذا الوعي في زمانه يعد متقدماً جداً بالنسبة إلى أكثر علماء عصره آنذاك، وقد ظهر هذا الوعي جلياً واضحاً في كل كتاباته، وأذكر منها قوله في دعوة العلماء للاشتغال بالسياسة: «فالعلماء المعتزلون عن السياسة كأنهم تواطأوا على أن يكون الأمر بأيديهم -أيدي السياسيين- ويكون لهم منهم رواتب الإنعام والاحترام».

شيخ الإسلام مصطفى صبري في عيون معاصريه:

قال عنه الأستاذ محب الدين الخطيب: «فحل الفحول الصائل الذي يعد فضله أكبر من فضل معاصريه».

وقال عنه الأستاذ الكوثرى: «قرة أعين المجاهدين».



وقال عنه الأستاذ عبدالفتاح أبو غدة: «إن كتابه موقف العقل هو كتاب القرن بلا منازع».

وقد قيل عنه غير ذلك، ويكفى فى هذا المقام أن أورد كلام الأستاذ محمد رجب البيومى -الذى ناله تقريع كبير من الشيخ لأمر صدر عنه- حيث قال الأستاذ محمد حفظه الله:

«إنى ما ذكرت الشيخ الكبير إلا توافد على ذهنى مع هذا الوصف العربى القديم لصاحب الصيحة المججلة فى المآزق الضائق وهو النذير العريان؛ إذ كان من عادة الأسلاف حين تلوح بوادر الخطر ويتنبه لها ذو بصر سديد أن يخلع ثيابه ويقف صائحاً فوق مرتفع من الأرض ويقول مشيراً إلى ثوبه المخلوع وقد جعل يحركه عن يمين وشمال: لقد حانت الكارثة: أنا النذير العريان، فيعلم السامعون أن الأمر جد، ويسرعون للتأهب العاجل دون انتظار».

رحم الله شيخ الإسلام مصطفى صبرى التوقادى وعوض المسلمين عنه خيراً فنحن بأمس الحاجة لأمثاله فى هذا العصر الذى أصبح كثير من المشايخ فيه موظفين لا قيمة لهم ولا وزن، ولا هبة ولا كلمة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.



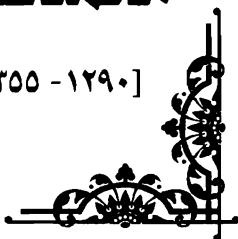


[۹]

شاعر ترکیا

محمد عاكف أرسوى

[۱۲۹۰ - ۱۳۵۵ هـ] [۱۸۷۳ - ۱۹۳۶ م]





قد بينت فى ترجمة شيخ الإسلام مصطفى صبرى التوقادى حالة تركيا فى أواخر الخلافة العثمانية وكيف تملاً عليها الأعداء والشامتون والمتربصون، وكيف توالى عليها الماسونيون من جمعية الاتحاد والترقى ثم خلفهم الكماليون، وكان لليهود يد طولى فى كل ذلك، ثم ألغيت السلطنة سنة ١٩٢٢ فالخلافة سنة ١٩٢٤ وأعلنت تركيا جمهورية علمانية ملحدة، وقطعت صلتها بالإسلام وسائر المسلمين تماماً، فصار المسلمون فى تركيا وخارجها كالشياه بلا راعٍ فى الليلة المطيرة المظلمة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولم يكن فى العالم الإسلامى آنذاك قوة تستطيع قيادة الجموع المسلمة ولا إرشادها، وفى الوقت نفسه حورب علماء الإسلام ودعائه والمخلصون فى تركيا حرباً شعواء لا تبقى ولا تذر، وعُلّق الآلاف على أعواد المشانق، وكلح وجه تركيا، وأدارت ظهرها تماماً للإسلام والمسلمين.

وفى ذلك الوقت فرّ جماعة من هذا البطش الكافر والهجوم السافر، فروا إلى مصر، كان بينهم علماء مثل شيخ الإسلام مصطفى صبرى التوقادى، ووكيل المشيخة الإسلامية محمد زاهد الكوثرى، وفرّ فيمن فرّ الأديب الشاعر محمد عاكف أرصوى، فوجدوا فى مصر ملاذاً وملجأً آمناً.

ولد الشاعر محمد عاكف فى إستانبول سنة ١٨٧٣، من أب تركى يسمى محمد طاهر وأم بخارية تدعى أمينة هانم، وتعلم العربية على يد والده الذى كان مدرساً فى مدرسة الفاتح، ودرس الابتدائية والمتوسطة.



ثم لما مات والده درس في مدرسة البيطرة، وتخرج فيها سنة ١٨٩٣ ليعمل مفتشاً في وزارة الزراعة.

ولم ينسَ أن يغترف من مصادر الإسلام فحفظ القرآن وهو ما زال بعد في التاسعة من عمره، على يد إمام جامع الفاتح، ودرس الحديث، واللغة العربية، ودرس أيضاً الفارسية والفرنسية.

وبعد تخرجه في مدرسة البيطرة دار في الأناضول والبلقان وسوريا والجزيرة العربية، واقترب من الناس فعرف أحوالهم، وسير شئونهم، ثم صار مدرساً في إستانبول سنة ١٩٠٦ - ١٩٠٧.

وبعد إعلان الحكم الدستوري سنة ١٩٠٨ شارك في إصدار مجلة «الصراط المستقيم» ونشر فيها أكثر أعماله الأدبية والفكرية، وفي السنة نفسها عُيِّن مدرساً للأدب في دار الفنون «جامعة إستانبول»، وأسند إليه تدريس الأدب العربي وأصول الترجمة بين العربية والتركية.

انتسب إلى جمعية الاتحاد والترقي التي خدعته بشعاراتها، فلما وقف على حقيقتها فترت علاقته بها فتوراً بيناً، وعارض أفكار ضياء آلب الذي كان بمثابة الأب الروحي لتلك الجمعية المشبوهة.

وفي سنة ١٩١٥ زار ألمانيا في مهمة من قبل الدولة فبقى في برلين ثلاثة أشهر، ورأى هنالك أسرى للمسلمين تابعين للدولة الروسية والإنجليزية فتفقد شئونهم، ثم عاد إلى بلاده.

ولما هزمت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ودخل الحلفاء تركيا شارك في تحرير بلاده بقصائد شعرية ملهبة.



وانتخب بعد ذلك فى مجلس النواب فى دورته ١٩٢٠-١٩٢٣ ممثلاً عن محافظته، وفى تلك السنوات كتب نشيد الاستقلال الذى أقره البرلمان التركى ليكون نشيداً رسمياً لتركيا فى ١٢ مارس سنة ١٩٢١، وكان هناك سبعمائة متسابق قدموا أناشيدهم قبله فلم يفز أى منهم، ومما جاء فى هذا النشيد:

أنت ابن شهيد حذارٍ من أن تؤذى أباك، لا تتخلَّ عن هذا الوطن الجنة
وإن امتلكت العوالم، أيها الهلال الجميل لن تُمزق سأكفديك بنفسى...

إلى آخر ما جاء فى النشيد الذى رده ويردده مئات الملايين من الأتراك منذ قرابة تسعين سنة إلى يومنا هذا.

ثم لما انتهت مدته فى مجلس النواب عاد إلى إستانبول من أنقرة، ولم يُدع من الحزب الحاكم لخوض الانتخابات مرة أخرى؛ ويبدو أن هذا كان بسبب اتجاهه الإسلامى الظاهر.

ولما ألغى مصطفى كمال السلطنة بالخلافة، وكنل بالشعب التركى كل التنكيل صُدم عاكف صدمة بالغة، وذلك لأنه كان يدعو إلى الوحدة الإسلامية فى أشعاره وكتاباتة، فرأى ذلك قد ذهب أدراج الرياح، ورأى أن التركى المسكين كان يعدم من أجل إصراره على الطربوش ورفضه القبعة، ورأى الإسلام يحارب حرباً شعواء، فلما وقف على ذلك كله أثر الخروج من تركيا.

فيمم وجهه شطر مصر، التى زارها من قبل مرتين مدعواً من قبل صديقه الأمير عباس حليم باشا، سنتى ١٩١٤، ١٩٢٤، ووصلها فى المرة



الثالثة سنة ١٩٢٥ ، وتوطدت صلته فيها بالأديب المصري عبدالوهاب عزام الذى مهد له الطريق إلى تدريس اللغة التركية فى جامعة فؤاد: «القاهرة»، وهياً له الصلة بمثقفى مصر.

لكنه عانى فى مصر من زوجه التى أصبحت حادة المزاج، وعانى من الفقر والوحدة، وعانى كثيراً من غربته، وفى سنة ١٩٣٥ -بعد عشر سنوات من إقامته بمصر- غادرها إلى لبنان للاستجمام ومن ثم إلى إستانبول ليموت بها فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٦ .

وكان محرر مجلة «يدى كون» التركية الأستاذ قندمير قد اجتمع بالأستاذ فى المستشفى، وإليك أهم ما دار بينهما من الحديث الذى ترجمه إلى العربية الأستاذ محمد يلماز مدرس اللغة العربية بكلية الإلهيات بجامعة أولوداغ التركية:

- استغرق السفر من مصر إلى هنا ثلاث لىال غير أنها كانت بالنسبة إلى ثلاثين قرناً، أمضيت هناك أحد عشر عاماً إلا أنى شعرت فى لحظة من اللحظات أنى لو بقيت هناك أحد عشر يوماً أخرى لجن جنونى .

- الشوق؟

- مؤلم جداً.

- حسناً، ماذا عن فرحة اللقاء؟

- لا تسألنى عن ذلك يا بنى فأنا لا أجرؤ على طرح السؤال حتى على نفسى، لكنى مع الأسف الشديد وجدت نفسى على هذا السرير بمجرد ما خرجت من الباخرة فلم أتمكن من مشاهدة أى شىء .



ثم تحدث عن أيام الجهاد ضد الكفار الذين وطئوا أرض تركيا في الحرب العالمية الأولى فقال:

- غادرت إستانبول حيث أقلتنا سيارة من أسكدار إلى قرية لا أتذكر اسمها في الوقت الحالى... كنا نستقل فى رحلتنا تارة عربية تجرها الثيران وأخرى تجرها الأحصنة حتى وصلنا إلى أنقرة... كانت تلك الأيام ما أشد هياجها خصوصاً يوم سقطت بورصة... لكننا لم نفقد ثقتنا ولو يوماً واحداً ولم نسمح لليأس أن يتسرب إلى قلوبنا أبداً، فهل كان هناك مناص أماننا غير الجدد؟

لم نكن نمتلك مدافع ولا بنادق لكننا كنا نمتلك إيماننا الراسخ فى قلوبنا والحمد لله.

- كيف قمتم بكتابة نشيد الاستقلال؟

- حقاً إنما يكتب هذا الكلام بالإيمان والأمة المؤمنة فقط، فكروا معي. قليلاً: هل كان بإمكانى أن أكتب كل هذا لو لم أمتلك الإيمان الراسخ وقتذاك... ولا بد لى أن ألفت الانتباه إلى أنه لا قيمة لنشيد الاستقلال على اعتبار أنه مجرد شعر، وإنما تكمن قيمته فى كونه أنه يعكس صفحة من صفحات تاريخنا بما فيها من آلام.

- وماذا عن النصر العظيم؟

- كنا فى فرحة غامرة.

- ألم تقوموا بكتابة شىء ما عند ذلك؟



- نفدت كل طاقاتي في تلك اللحظات فلم أعد أقدر على التفكير في أى شىء ولا على سماع أى شىء، ولا كتابة أى شىء...

- كيف قضيتم الوقت في مصر؟

- هناك مدينة اسمها حلوان تقع على بعد خمسة وعشرين ميلاً من القاهرة، وهى مدينة هادئة كنت أقطنها، فأنا بطبعى إنسان هادئ لا أحب الضجيج، وكذلك في إستانبول كنت على الحال نفسها من قبل، ففضلت العيش في مدينة حلوان إلى أن كلّفت بمهمة في دار الفنون، وفي الأيام الأخيرة حللت بالقاهرة.

- فهل أحببتكم مصر؟

- نعم فهناك جوانب جميلة بمصر خصوصاً في فصل الشتاء، وكذلك في فصل الصيف لم أكن أتضايق من الطقس الحار... والبيوت بنيت على طراز يتناسب مع الطقس هناك فلا تتعدى الحرارة داخل الغرف في أشد الأيام حرارة ثمانياً وعشرين أو ثلاثين درجة...

- هل تسهل عليك الكتابة؟

- لا، أبذل مجهوداً كبيراً وأعمل ذهني حيث أدرس الموضوع بكل تفاصيله في ذهني، وأخيراً عندما أنقله على الورق أتعب كثيراً.

من أعماله:

قد كتب عاكف كثيراً من المقالات السياسية والأدبية في مجلته «الصراط المستقيم» والتي صار اسمها بعد ذلك «سبيل الرشاد»، ومما كتبه:



«لم يكن أمام مسلمى الأناضول التركى بعد أن رأوا حجم مصيبة الاعتداء على حرمة أراضيهم غير العودة مجدداً لحمل السلاح والعمل على صد حملات أهل الصليب فى حضارة القرن العشرين».

وكتب منتقداً القومية التى شاعت فى تركيا آنذاك:

«يا جماعة المسلمين: أنتم لستم بعرب، ولا ترك، ولا بلقانيين، ولا أكراد، ولا قوقازيين، ولا شركس، أنتم فقط عبارة عن أفراد فى أمة واحدة هى الأمة الإسلامية، وكلما حافظتم على الإسلامية لم تفقدوا قومياتكم».

وقد شغف فى صدر شبابه بالشاعر الفارسى سعدى الشيرازى وترجم أكثر شعره إلى التركية، وأعجب بالشاعر المصرى ابن الفارض ولعله لم يتنبه لما فى بعض شعره من ضلالات، وذلك لأنه -أى عاكف- لم يكن متضلعا من العلوم الشرعية، والله أعلم.

وأما شعره فمجموع فى دواوين سبعة ما زالت تروج بين الأتراك، وقد أبصر ديوانه الأول النور سنة ١٩١١ وسماه بـ«صفحات»، وفى سنة ١٩١٢ صدر ديوانه الثانى بعنوان «فى منبر السليمانية» جمع فيه مقطوعات من شعره الدينى والأخلاقى، وفى سنة ١٩١٣ صدر ديوانه الثالث: «أصوات الحق» الذى حوى إشارات فى تفسير القرآن العظيم وبيان بعض الأحاديث الشريفة، وفى سنة ١٩١٤ صدر ديوانه الرابع: «فى منبر الفاتح» الذى أورد فيه شعره عن ثورات البلقان ضد الأتراك ونتائجها السيئة، وفى سنة ١٩١٧



صدر ديوانه الخامس: «الخواطر» الذي حوى شعره عن رحلته إلى مصر وألمانيا، ثم صدر ديوانه السادس: «عاصم» سنة ١٩١٩ الذي حوى شعره عن حرب الاستقلال، ثم صدر ديوانه السابع: «الظلال» الذي حوى أعماله من سنة ١٩١٨ - ١٩٣٣.

كتب قصيدة بعنوان «من صحراء نجد إلى المدينة المنورة» تحدث فيها عن زيارته للمدينة المنورة سنة ١٩١٤.

ومن شعره الذي ترجمه صديقه الدكتور عبدالوهاب عزام رحمهما الله تعالى:
ما كنت لأقف معقول اللسان أقلب الطرف فيما حولى، ولم يكن لى
بد أن أنوح لأوقظ الإسلام، إنما أريد أن تفور القلوب المرفهة الحس،
الراسخة الإيمان...

إنى أنوح ولكن لمن؟ أين أهل الدار؟ أقلب طرفى فلا أظفر إلا بأمم نائمة.
ومن شعره لما زار الأقصر فوجد فيه سياحاً أجانب فرنسيين وإنجليزين
وألمانيين يحتسون الخمر، ورأى أمامه آثار الفراعنة فقال:

«رأيت أمامى نحو ثلاثة عشر نفرًا من السائحين ما بين فرنسيين وإنجليز
وألمان، مجتمعين زرافات ووحدانًا وللكئوس بينهم رنين، فالفرنسيون
يضحكون لأن كيسهم المملوء يهز الدنيا المدينة لهم هزاً عنيفاً، وليس فى
الدنيا ما يحزنهم إلا هزيمة «سيدان»، ومع ذلك فإن الرغد والرفاهية ينسيان
الإنسان أنكى الجروح.



والإنجليز يضحكون وما أجدرهم بالضحك لأن الدنيا كلها رهن
إشارتهم... يؤلبون شعوب الأرض بعضها على بعض وينظرون عن بُعد
فرحين...

والألمان يضحكون لأن قوة عضدهم كفيلة بأن يصدق العلم جميع ما
يقولون، وما دام البشر لا يعطى الحق إلا للقوة، فما الحيلة فى الوصول إلى
الحق بغير القوة.

أضعيف أنت إذن؟ فالنحيب أولى بك، نعم فى هذه الساحة من
الصخب: صخب الحبور، وجلبة السرور، أنا وحدى اليأس الذى لا
يتسم، قد أخذت أبكى وما أجدرنى بالبكاء، فأنا كالقريب من ديار
دينى... هذه السهول لا ترجع حديثى، أيها الشرق العظيم، أيها العالم
المترامى الأطراف، ليت شعرى فى أى بقعة من بقاعك نجد أبناءك السعداء،
إن رأسك تزرع تحت الشدائد وعضدك واه، وذراعيك مغلولتان، ولما يهب
نسيم الاستقلال على قلبك بعد، قد طففت فى أرجائك كلها لأرى أمامى
داراً للإسلام فكّلت قدماى.

وكلما تناهت إلى من سبيلى أصوات الأجانب لم تفض روحى الباكية
إلا بخيبة الأمل، فهل كان نصيبى أن أكون غريباً فى قلب الإسلام؟ إن هذه
العاقبة لأقصى انتقام للأيام، والآن وقد تقدمت بى السنون ووهت قدماى
فعلى بنى أن يجاهدوا ويأخذوا بثأرى.

وفى كلامه تشاؤم لا يوافق عليه، لكن أنى لمثله أن يتفاءل وهو يرى
الأكثرية الساحقة من ديار الإسلام آنذاك محتلة ومسحوقة، وهو يرى أكثر



المسلمين آنذاك في صدّ عن الإسلام وهجران لشريعته وشعائره، لقد كان يعيش في مدة مظلمة، لم يكن فيها بصيص من نور يبشر بعودة الإسلام من جديد، وأقول دائماً لبعض إخواني: احمداوا الله -تعالى- على أنكم لم تعيشوا في ذلك الزمان وجئتم في زمان كل ما فيه يبشر بعودة الإسلام من جديد، والله الحمد والمنة.

ومن أعماله ترجمة معاني القرآن إلى التركية، صنع ذلك في مصر أيام منفاه فيها، لكنه -على حذره في الترجمة واهتمامه بها- لم يرضَ عن عمله هذا فطواه ولم ينشره حتى ذهب أدراج الرياح.

أشخاص تأثر بهم:

وكان قد تأثر كثيراً بالأستاذ جمال الدين الأفغاني -رحمه الله تعالى- ودعوته لنبذ الاستبداد ونيل الحريات ولو بالقوة، وكان يردد آراءه وآراء تلميذه الأستاذ محمد عبده -رحمه الله تعالى- وترجم كثيراً من تلك الآراء إلى اللغة التركية، وأفرد لمقالات الأستاذ محمد فريد وجدي -رحمه الله تعالى- حيزاً كبيراً من جريدته، وترجم كتاب الأستاذ فريد «المرأة المسلمة».

وتأثر بالشاعر الكبير محمد إقبال وصيحاته الثائرة، وقد أخبر عنه صديقه الأديب الدكتور عبدالوهاب عزام:

«كم تحدثنا وقرأنا في سيرنا وجلوسنا في الآداب الثلاثة: العربية والفارسية والتركية، وكنت أحب أن أقرأ عليه شعره، وكان يسره أن يستمع إليه، وكانت كل أحاديثنا وقراءتنا متعة نجتمع فيها على الفكر والذوق والأمل والألم.



وكان أطيّب المجالس مجلساً نفرغ فيه إلى شعر محمد إقبال، فقد عرّفنى -رحمه الله- بإقبال يوم أعارنى ديوانه «بيام مشرق» فإذا صفا الوقت عمدت إلى أحد كتب إقبال فقرأت، وأستمع مقبلاً مستغرقاً، يقطع إنشادى فى الحين بعد الحين بالاستعادة أو الاستحسان أو التعجب أو التأوه وأذكر أننا بدأنا كتاب إقبال «أسرار خودى» فواليسنا الجلسات حتى أنهيناه إنشاداً، ثم أتبعنا به أخاه «رموز بى خودى» فختمناه على شوق إلى الإعادة.

قال عنه: الأستاذ الألمانى ريتشارد هرتمان:

«هو مع إحاطته -على العموم- بالحياة الثقافية والسياسية يتعمق من الوجهة الإصلاحية فى الدين، وما يعنيه من الرجوع إلى الإسلام يعنى به الرجوع إلى الإسلام القديم لا بإبعاد الأمور التى غيرت منه أثناء تطوره التاريخى فحسب، بل أيضاً وقبل كل شئ يريد الوقوف ضد هؤلاء العصريين المندفعين فى تيار الغرب، وضد دعاة المذهب القومى، فهى حركة دينية تريد أن يكون الدين قوة تخضع لها كل الحياة المدنية فى غير إضرار بحركة الفرد».

ولم يكن له كبير ذكر فى بلاده إلى أن قرر مجلس الأمة التركى فى ٤ من مايو ٢٠٠٧ قراراً باعتبار يوم ١٢ مارس من كل عام يوماً وطنياً للاحتفال رسمياً بذكرى قبول النشيد الوطنى التركى والاحتفاء بشاعره، ولعل فى هذا شيئاً من التكريم له والوفاء.



تلك كانت سيرة عاكف الشاعر التركي الكبير بإيجاز، وقد عاش في مدة صعبة جداً، ولم يكن فيها للإسلام رجال يعملون له إلا القليل، فلذلك غلب على شعره التشاؤم والبكائيات، لكن حسبته أنه حاول أن ينصر الإسلام ويوقظ المسلمين من باب الشعر والأدب، ولعل ذلك كان أقصى ما يستطيع عمله وهو غريب نائي الدار عن وطنه وأهله، ولنسأل الله له الرحمة والغفران.





[١٠]

الشيخ المجاهد

سعيد يران الكردي

[١٢٨٢ - ١٣٤٣ هـ] [١٨٦٥ - ١٩٢٥ م]





عندما أسس مصطفى كمال جمهورية تركيا الحديثة أقامها على بتّ الصلة بالإسلام، وقطع صلاتها بالمسلمين، وأرغم الأتراك على التفرنج في الهيئة والسلوك، وشجع النزعات الإلحادية، وقمع الصوت الإسلامي تماماً، وكلح وجه تركيا، وكان العلماء آنذاك يدورون بين خيارات: إما السكوت على مضمض والانحناء أمام تلك العاصفة الهوجاء، وإما المهادنة والرضا، وإما الاعتراض، وإما الثورة والعصيان، وقد واجه مصطفى كمال اعتراضات العلماء بوحشية وصفاقة، فأعدم منهم عدداً كبيراً، وسجن آخرين، أما العلماء الذين عصوا وثاروا - وكانوا قلة نادرة - فقد واجههم الجيش التركي الجرار الذي لم يبق ولم يذر، وقضى على ثورتهم بسرعة، ومن هؤلاء الشيخ سعيد بيران.

وهو سعيد بن محمود بن علي البالوي نسبة إلى بالو وهي منطقة من المناطق الكردية، وكان جده علي قد استقر فيها ونُسب إليها، ولد الشيخ سعيد في بالو هذه سنة ١٨٦٥ في قرية بيران، وتعلم على يد والده، فحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة، ثم درس الفقه، وكان والده زعيماً دينياً يلتف حوله الناس، وكان نقشبندياً، فلما مات ورثه ولده سعيد هذا في الزعامة الدينية والتف حوله الأكراد وبعض الأتراك، ومن المعلوم أن الطريقة النقشبندية تقل فيها البدع وكثير من زعمائها مجاهدون لهم أيادٍ بيضاء في الجهاد، وكان منهم الإمام شامل في داغستان والشيشان.



وكان عدد من اجتمع حول الشيخ سعيد قرابة اثني عشر ألفاً، وهو عدد ضخم يغري بعمل شيء لوقف الإلحاد، ولا يُنسى في هذا المقام حديث رسول الله ﷺ: «لن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة».

بذل الشيخ سعيد جهوداً كبيرة في نشر العلم في مناطق الكرد، وكان مجلسه يضم العلماء والعباد والرجال الأشداء الذين يرغبون في الجهاد، وكان لا يقبل من أحد أن يقبل يده أو ينحنى له كما كان الناس يفعلون بالمشايخ آنذاك.

وكان للشيخ جولات استقطب فيها بعض العائلات الكردية، وشارك في جمعية «آزادي» وهي جمعية كردية جعلت من أهدافها نيل الأكراد حقوقهم، وكان من المنتظر أن تقوم جمعية كهذه في خضم الصيحات المجنونة التي كان يطلقها الطورانيون الأتراك، والأعمال ذات الصبغة القومية التي كانوا يقومون بها، ونحن نعلم أنه لا ينبغي -في ظل الإسلام الوارف- أن تقوم جمعية للكرد وأخرى للترك وثالثة للعرب، فهذا الصنيع قاصم للوحدة الإسلامية وقاصم لظهر الإسلام القوى.

وقد هم الشيخ -رحمه الله تعالى- أن يؤسس جامعة إسلامية في منطقة «وان» الكردية تكون على غرار جامعة الأزهر في القاهرة لكن بعض المشايخ الأكراد وقفوا ضد هذا المشروع فلم يكتب له الظهور.

وكانت للشيخ صلات مع بعض المثقفين الأكراد في إستانبول عن طريق ابنه علي رضا والشيخ عبدالقادر أفندي نجل الشيخ عبيد الله النهري، لكن



لا ندرى ما الذى استفاده من صلاته هذه، فإن المعلومات عن الشيخ سعيد بقيت شذرات قليلة ليس فيها تفصيلات.

موجز تاريخى لمناطق الأكراد آنذاك:

فى سنوات الحرب العالمية الأولى احتل الروس كثيراً من مناطق الأكراد، وتركوا الأرمن يعيشون فى بعضها فساداً، وفى سنة ١٩١٧ انتصرت الثورة البلشفية فى موسكو وانسحبت القوات الروسية من مناطق الأكراد وسلمتها إلى الميليشيات الأرمنية، وكان القائد خالد جبرى آنذاك هو الشخص المحبوب المطاع لدى الأكراد، وكان قائداً لإحدى الفرق العسكرية للجيش العثمانى وكان حميداً مؤيداً للسلطان عبد الحميد وداعياً للخلافة العثمانية، فدعا إلى قتال الأرمن وإخراجهم من المنطقة الكردية، وفعلاً استطاع خالد جبرى ومن معه أن يخرجوا الأرمن، وفى سنة ١٩٢٠ حرروا أرض الكرد وطهروها من الأرمن تماماً.

ولما عقدت معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ نصّت على بقاء ديار الكرد فى الجمهورية التركية، وهذا لم يعجب خالد جبرى فخطط للثورة هو ومجموعة من القوادى فى ديار بكر، لكن هذا الأمر انكشف وأعدم خالد جبرى ونائبه فى التنظيم السرى قبل أن تنطلق الثورة.

وفى شهر فبراير من سنة ١٩٢٥ اجتمع أعضاء التنظيم من تركيا والعراق وسوريا فى حلب وقرروا انتخاب الشيخ سعيد قائداً عاماً للثورة خلفاً لخالد جبرى، ورئيساً لجمعية آزادى، وعين المؤتمر الجبهات الثورية وقياداتها على النحو التالى:



جبهة بالو بقيادة الشيخ شريف ومعه ١٨ ألف مقاتل .

وجبهة فارتو بقيادة الضابط عبدالله ملكان وعلى رضا نجل الشيخ سعيد والعقيد خليل حتو ومعهم ١٢ ألف مقاتل .

وعلى هذا المنوال عينت جبهات القتال الأخرى في ديار بكر وباخر ومادن وبوتان وساسون إلى آخره ...

وقد حدث خطأ عقب هذا التوزيع نشأت بسببه الثورة مبكراً، أى أن الأكراد ثاروا قبل اكتمال استعدادهم، وسبب هذا أن الشيخ سعيداً قام بجولة واسعة في مناطق الأكراد لتهيئتها للثورة، وكان معه مئات من مناصريه، وكانت الثورة قد خُطط لها أن تبدأ صبيحة عيد النوروز في ٢١ مارس/ آذار سنة ١٩٢٥ وهو يوم العيد القومي للکرد، ووصل الشيخ إلى قريته بيران، وصادف قدومه دخول مفرزة من الجيش التركي لاعتقال بعض الشباب الأكراد، فطلب الشيخ سعيد من رئيس المفرزة -حسنى أفندى- احترام وجوده وتأجيل اعتقال من يريد بعد أن يغادر الشيخ القرية فرفض رئيس المفرزة، فنشب صراع مسلح بين الطرفين أدى لمقتل بعض الجنود الأتراك وأسر القائد وبعض من معه، فظن بعض قادة الجبهات الكردية أن الشيخ سعيداً بدأ الثورة فهاجموا القوات التركية المنتشرة في مناطقهم، واندلعت الثورة في مناطق الأكراد بسرعة، وانضم إليهم بعض العرب والشركس والأرمن .

وسيطر الشيخ عبدالرحيم أخو الشيخ سعيد على محافظة «كينجو» التي أعلنت عاصمة مؤقتة للأكراد .



وقام طاهر بيران -أخو الشيخ سعيد أيضاً- بالاستيلاء على البريد من ليجة إلى سردى، ووصل بمائتي مقاتل إلى كينجو وسلم للشيخ سعيد الوثائق والأموال.

وبهذه الأحداث ابتدأت حركة الشيخ سعيد الثورية قبل أربعين يوماً تقريباً من الوقت المقرر لها، وتولى فتى حسن رئيس عشيرة مودان إدارة محافظة «كينجو»، وألقى الشيخ سعيد ضربة العشر، وهذا جلب رضا السكان، وسُجن المحافظ التركي والموظفون الأتراك.

- عقد مجلس الوزراء التركي جلسة عاجلة في ٢٢/٢/١٩٢٥ شارك فيها رئيس الأركان فوزى باشا، وأعلنت حالة الطوارئ في منطقة الانتفاضة.

- في ٢٥/٢/١٩٢٥ عقد البرلمان التركي جلسة عدل فيها القانون رقم ٥٥٦ الخاص بالعقوبات على خيانة الوطن ليصبح كالتالى:

«منع إنشاء المنظمات السياسية على أسس دينية، وكذلك استخدام الدين فى سبيل تحقيق الأهداف السياسية، واعتبار الأشخاص القائمين بمثل هذه الأعمال أو المنتسبين إلى مثل هذه التنظيمات خونة»، ولعل هذا القانون هو الأول فى البلاد الإسلامية وهو السابق إلى تأسيس هذا الفهم الخاطئ، ألا وهو فصل الدين عن السياسة.

- فى ٢٨/٢/١٩٢٥ أحرزت الثورة انتصارات، والتف حولها عشرون ألفاً تقريباً من المقاتلين الأكراد، واستولت على ليجة وخانى، وارتبكت الحكومة التركية.



- فى ٢/ مارس/ آذار سنة ١٩٢٥ استقالت حكومة فتحى بك وتولى عصمت إينونو رئاسة الوزراء، وأعلنت الحكومة تدابير جديدة لقمع انتفاضة الشيخ سعيد، وسن البرلمان قانوناً يسمح بإنشاء محكمتين: إحداهما فى أنقرة، والأخرى فى الولايات الشرقية -مناطق الأكراد- أما الأولى فصلاحياتها محدودة، ولا بد من مصادقة البرلمان على أحكام الإعدام، أما الأخرى فصلاحياتها مطلقة.
- فى ١١/٣/ ١٩٢٥ أمر الشيخ سعيد بالهجوم على مدينة ديار بكر الحصينة من جميع الجهات لكن القوات التركية المتفوقة عدداً وعدة أفشلت الهجوم فأصدر الشيخ سعيد أمره بالانسحاب.
- فى ٣١/٣/ ١٩٢٥ هاجمت القوات الحكومية مناطق الانتفاضة وحصل تحول فى موازين القوى ضعف على إثره الأكراد.
- فى ٦/٤/ ١٩٢٥ تراجع الشيخ سعيد ومعه مئات من مقاتليه إلى صالحان.
- وفى ١٠/٤ حوصرت قوات الانتفاضة فى «كينجو» وحطمت، وقبض على الشيخ سعيد وعدد من أتباعه.
- فى ٢٩/٥ بدأت محاكمة الشيخ سعيد ورفاقه، واستغرقت شهراً كاملاً.
- فى ٢٩/٦ صدر حكم بالإعدام شتقاً على الشيخ سعيد ورفاقه، ونفذ فى اليوم التالى فى ساحة المسجد الكبير فى ديار بكر، وفوق منصة الإعدام قال الشيخ سعيد:



«إن الحياة الطبيعية تقترب من نهايتها ولم آسف قط عندما أضحي بنفسى فى سبيل الله، وإننا مسرورون لأن أحفادنا سوف لن يخجلوا منا أمام الأعداء».

عقب إخماد الثورة نكل الكماليون بالأكرد تنكياً فظيماً استمر إلى سنة ١٩٢٨.

جوانب مهمة فى ثورة الشيخ سعيد رحمه الله تعالى:

- حاول الشيخ سعيد إقناع بديع الزمان سعيد النورسى الكردي المشهور بأن يثور معه، لكن بديع الزمان رفض ورأى أن يخدم الإسلام على النحو الذى صنعه، ولكل منهما أجر اجتهاده إن شاء الله تعالى.
- يمكن أن يعد الشيخ سعيد أول شيخ فى القرن الماضى يقود ثورة وينجح فى إدارة أجزاء من بلاده برهة من الزمن، وحركته جديرة بالدراسة من قبل كل من يريد معرفة الحركات الثورية على الحكام الظلمة والكفرة فى العصر الحديث وتأصيلاتها الشرعية وفقهاها الحركى.
- لم تكن ثورة الشيخ سعيد لأجل القومية الكردية كما أشاع مصطفى كمال وأنصاره، إنما كانت لوجه الله تعالى، ويمكن أن بعض أنصاره ثاروا ثاراً لقوميتهم لكن هذا كان رد فعل متوقع فى ظل السياسة القومية الطورانية الهوجاء التى كانت تدير بها حكومة أنقرة البلاد، لكن الشيخ سعيداً كانت منطلقاته إسلامية محضة، وبدل على هذا ما ذكره الملا أبوبكر فى موقع جريدة «الاتحاد» فى شبكة المعلومات حيث قال ما ملخصه:

ظن بعض الناس أن الشيخ سعيداً قاد الثورة من أجل حقوق الكرد القومية، وهو ما ادعته الحكومة الكمالية وأعلنته أثناء محاربة الشيخ، وهو



نفس ما تدعيه بعض الحركات القومية الكردية إلى يومنا هذا إذ نسبوها إلى جمعية «آزادی» وجمعية «تعالی وترقیة کردستان»، وهو أيضاً ما ركز عليه بعض المستشرقين في كتاباتهم التاريخية عن الثورة.

إلا أن الوثائق التي ظهرت في السنين الأخيرة أثبتت إسلاميتها وقيامها لأجل إعادة الخلافة وتطبيق الشريعة الإسلامية.

وكانت الحكومة التركية تعد وثائق حركة الشيخ سعيد بيران إلى سنة ١٩٧٧ وثائق سرية وتحظر الاطلاع عليها.

وقد ظهرت في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي دراسات ووثائق توضح حقيقة الثورة وأهدافها، وأن الشيخ أعلن الثورة باسم الله، واتخذ لها راية خضراء هي راية رسول الله ﷺ، وحمل شعاراً لها: لتحيّا الخلافة ولتسقط الجمهورية، وكان يتلقب بخادم المجاهدين.

وقد نشرت وثيقة سرية لمجلس الأمن التركي تبين أن ثورة الشيخ سعيد إسلامية، ومما جاء في وثائق محاكمات الشيخ سعيد أن القاضي عندما اتهمه بأن دوافعه قومية قال له: يشهد الله أن الثورة لم تكن من صنع السياسيين الكرد - القوميين - ولا بسبب تدخل الأجانب.

وقد سأله القاضي: هل تريد أن تصبح خليفة؟

فقال: إن وجود الخليفة ضماناً أساسية لتطبيق قواعد الدين، وإن المسألة مطلوبة شرعاً.



وسأله: هل كان إعلانكم للعصيان يعنى أنكم وصلتكم إلى قناعة تامة بأن الشريعة غير مطبقة في البلد؟

فأجابه: إن القرآن الكريم يؤكد على الخروج على الحاكم في الظروف التي أشرنا إليها أعلاه، وتطبيق الشريعة يعنى منع الهرج والمرج: القتل والزنا وشرب الخمر إلخ ... وبحمد الله كلنا مسلمون ولا يجب التمييز بين الكرد والترك، وحسب اعتقادنا أن هذه الأمور حالياً متروكة، إننا انطلقنا من هذه القناعة وعلى أساس القرآن الكريم.

وأتهم الشيخ سعيد بأن الأجانب ساعدوه أى الإنجليز والفرنسيين، وقد تبين أن الإنجليز لم يساعدوه بل ساعدوا مصطفى كمال الذى قاتل الشيخ سعيداً بمدافع الإنجليز، وتبين أن الأتراك طلبوا من الفرنسيين المحتلين لسوريا آنذاك أن يسمحو بمرور ٤ قطارات يومياً على الخط الحديدي بغداد- حلب- إستانبول لنقل خمسة وعشرين ألف جندي تركي مع عتادهم إلى مناطق القتال.

- كانت الثورة في الجملة غير ناضجة، ولم يسبقها إعداد كاف ولا تربية جهادية واضحة لسائر الأكراد، وقد ذكرت أن الشيخ سعيداً وجد نفسه في مواجهة الجنود الأتراك قبل الموعد المخطط له بأربعين يوماً، كل هذه العوامل أدت إلى إجهاض مبكر للثورة.

لكن يكفى الشيخ أنه ثار لوجه الله تعالى، وترك تراثاً جهادياً ناصعاً يستمد منه المجاهدون إلى قيام الساعة معانى جليلة وقيماً عظيمة، ويكفيه



أنه أول شيخ -فيما أعلم- ثار في القرن الماضي أمام الحكومات الظالمة أو الكافرة وترك بذلك تجربة مهمة تستضيء بها الأجيال.

كان الشيخ سعيد واعياً بمتطلبات زمانه، فاهماً لفقه الواقع، وهذا ما ميزه عن كثير من المشايخ الذين كانوا في غفلة، وكان مخلصاً -كما أحسبه إن شاء الله- وهذا ما ميزه عن بعض مشايخ السوء الذي باعوا دينهم بدنيا غيرهم.

وكان يفهم الإسلام بشمول جامع بين النواحي الدينية والسياسية على وجه غير مسبوق إلا من قلة قليلة من المشايخ الذين جاءوا في العصر الحديث، وكانت لهم محاولات إصلاحية، بينما كان كثير من المشايخ في عمى عن هذا الشمول في تناول القضايا الإسلامية والتعامل معها.

تلك كانت سيرة الشيخ المجاهد سعيد بيران الكردي، وأزعم أن سيرته بحاجة إلى دراسة شاملة وواسعة من قبل مؤرخي الإسلام عامة ومؤرخي الكرد خاصة، فما هو موجود منها إنما هو شذرات قليلة لا توفى بحق هذا المجاهد العظيم الذي لم يصبر على إعلان الكفر في تركيا وتحويلها عن قبلتها الإسلامية وماضيها المجيد، والله الموفق.





الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
المجاهد البطل: أحمد بن عرفان الشهيد	١١
المجاهد الداعية: عثمان بن فودى	٢١
المجاهد الداغستاني: الإمام شامل	٣١
الداعية العجيب: عبد الرشيد إبراهيم	٤١
الأمير المجاهد: محمد بن عبد الكريم الخطابي	٤٩
أبو الأحرار: محمد محمود الزبيري	٦١
الباحثة عن الحقيقة: مريم جميلة	٧٥
شيخ الإسلام: مصطفى صبرى التَّوَقَّادى	٨٧
شاعر تركيا: محمد عاكف أَرْضوى	١٠١
الشيخ المجاهد: سعيد بيران الكردي	١١٥
الفهرس	١٢٧





العاشر من رمضان - تليفاكس: ٣٦٢٣١٣ - ٣٦٣٣١٤ / ١٥٠
مكتب القاهرة - ت: ٣٨١٣٧ - ٢٢٤٠٠٢٢ - فاكس: ٢٢٤٠١٧٠٥٣